رسائل الإصلاح (٣)

المؤسسية والمؤسسات

في الحضارة الإسلامية



أ. د. محمد عمارة

دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

رسائل الإصلاح (٣)

المؤسسية والمؤسسات

في الحضارة الإسلامية

تأليف

أ. د. محمد عمارة

دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

***

تقديم



في كثير من كتابات غلاة العَلمانيين.. وفي المناظرات الشهيرة التي دارت بين الإسلاميين وبين هؤلاء الغلاة، تردَّدت كثيرًا عبارات هؤلاء العَلمانيين:

« إن (٩٩٪) من تاريخنا ظلام »!

« وإن التاريخ الإسلامي هو تاريخ النَّطْع والسَّيَّاف »!

بل إن أحد هؤلاء الغلاة قد لخص مكانة الحضارة الإسلامية - التي تعلمت منها الدنيا - بأنها لا تعدو شطر بيت شعر لأبي نواس (١٤٦ - ١٩٨هـ/ ٧٥٧ - ٨١٤ م) يقول فيه:

وداوني بالتي كانت هي الداء

○ ولقد زاد هذا الطين بلة، أن قطاعًا ملحوظًا من دارسي التاريخ الإسلامي - حتى الذين لم يسقطوا في الغلو العلماني - قد رأوا في تحول الخلافة الراشدة إلى « مُلك عضود »، منذ بداية الدولة الأموية (٤١هـ/ ٦٦١م) بداية السقوط المبكر لتاريخنا الإسلامي في مستنقع الاستبداد والتخلف بل والانحطاط!..

ولقد أسهمت في دعم هذا التصوُّر الزائف أكاذيب المبالغات الشعوبية والشيعية التي سوَّدت صورة هذا التاريخ.

○ وفي الرد على هؤلاء الغلاة.. وعلى أصحاب النظرات السطحية.. كنت دائمًا أطرح هذا السؤال:

- إذا كانت حضارتنا الإسلامية، التي أنارت الدنيا لأكثر من عشرة قرون.. والتي أحيت مواريث الحضارات القديمة من الموات.. والتي تعلّمت منها الدنيا - ولا تزال تتعلم حتى هذه اللحظات - إذا كانت هذه الحضارة التي وضع الوحي نواتها لم تتبلور علومها وفنونها وآدابها ومناهجها وتقنياتها في عهد الخلافة الراشدة.. وإنما حدث كل هذا في عهود « الملك العضود » - الأموية.. والعباسية -.. فكيف يسطع النور الباهر في الليل البهيم؟!.. وكيف تزدهر رياض الإبداعات - الدينية والمدنية - على أرض النِّطْع والسَّيَّاف؟!..

إنها « معادلة مستحيلة ».. وسؤال لا جواب عليه عند أصحاب هذه التصورات السوداوية عن تاريخ الإسلام والمسلمين.. تلك التصورات التي غدت شائعة لدى قطاعات واسعة من المثقفين.

○ ولقد أدركتُ أن لهذه النظرة السوداوية لتاريخنا الإسلامي أسبابًا تتجاوز « سوء النية » عند نفر من غلاة العلمانيين الذين يريدون تشويه صورة الإسلام وتاريخ أمته وحضارته؛ ليقطعوا الطريق على « إسلامية النهضة » التي

تنشدها الأمة هذه الأيام..

وإلا، فلماذا شارك ويشارك كثير من غير هؤلاء الغلاة في هذا التصوُّر السلبي لتاريخ الإسلام؟!

أدركتُ أن وراء هذه الصورة المغلوطة لتاريخنا الإسلامي: الأسلوب الذي كُتب به هذا التاريخ!

فأغلب مدونات التاريخ الإسلامي - القديم منه والحديث - قد سلطت كل الأضواء على « السلطة والسلطان » - تلك السلطة التي كانت ظالمة ومستبدة في كثير من الأحيان - فجاءت صورة هذا التاريخ « عوراء » على هذا النحو الذي ظنه الكثيرون.

ولقد غاب عن هذا التاريخ - الذي وقف عند « السلطة » -.. غاب تاريخ « الأمة » - الذي دونته [كتب الطبقات] - طبقات الفقهاء، والفلاسفة، والمتكلمين، والمفسرين، والمحدِّثين، والقراء، والأطباء، والأدباء، والشعراء، والصوفية، والزهاد، والعلماء التجريبيين، والحرفيين، والصناع، وحتى المغنيين والموسيقيين.. إلخ.. إلخ..

كما غابت عن هذا التاريخ « صورة الواقع » - واقع الدواوين، والمؤسسات، والعمارة، وتمصير الأمصار، والصناعات، والتجارات، والزراعات، والخانات، والأسواق، والمدارس، والمكتبات، والمساجد، والتكايا، والمزارات، البيمارستانات.. إلخ.. إلخ. هذا « الواقع »

الذي أبدعت حضارتنا لتأريخه فنًا متميزًا من فنون التأليف، هو [موسوعات الخُطط] و [معاجم البلدان]..

ولو أن تاريخنا الإسلامي قد سلط الأضواء على هذه المكونات الثلاثة:

١ - الأمة، بشعوبها وقبائلها.. وطبقات المبدعين فيها..

٢ - والواقع الثري والغني، الذي أرّخت له كتب الخُطط.. ومعاجم البلدان..

٣ - والسلطة والدولة - التي كانت محدودة الحجم.. ومن ثم كان انحرافها المبكر محدود التأثير -..

لو أن ذلك قد حدث في تدوين تاريخنا الإسلامي، لظهر جليًا أن الانحراف المبكر للدولة لم يدخل بأمتنا عصر الظلمات، ونفق الانحطاط.. وأن الأمة - التي بنت الحضارة - قد كان نصيبها أعظم من الدولة - في هذا الإبداع الحضاري - بما لا يقاس.. ولبرزت لنا خصيصة هذا التاريخ الإسلامي - التي تفرد بها - وهي: تحجيم الدولة.. وتعظيم الأمة.

وهي الخصيصة التي تفسر بناء أعظم الحضارات في ظل دولة الملك العضود!

***

لقد كتب المؤرخون - على سبيل المثال - تاريخ الخليفة الشهيد ذي النورين عثمان بن عفان (٤٧ ق. هـ - ٣٥هـ/ ٥٧٧ - ٦٥٦م).. لكن أحدًا لم يلتفت إلى تاريخ العلم الطبيعي، الذي ارتاد ميادينه الأمير الأموي خالد بن يزيد (٩٠هـ/ ٧٠٨م) - الذي قال عنه الراشد الخامس عمر بن عبد العزيز (٦١ - ١٠١هـ/ ٦٨١ - ٧٢٠م): « ما ولدت أُمية مثل خالد بن يزيد، لا أستثني من ذلك عثمان ولا غيره »!..

كذلك كتب المؤرخون تاريخ الحاكم العادل عمر بن عبد العزيز.. لكن أين هو التاريخ الذي يؤرخ لدور عمر بن عبد العزيز في ترجمة الطب، وتعميم دراسته في الحواضر الإسلامية - بعد أن كان لا يدرس إلا في الأسكندرية وحدها -! وأين تاريخ جهوده في تعريب العلوم؟!..

ولقد طفحت صفحات التاريخ بسيرة الحجاج بن يوسف (٤٠ - ٩٥هـ/ ٦٦٠ - ٧١٤م) الوالي السفاح.. لكن سيرته في اللغة، والقراءة، والفصاحة، والتعليم، والشهامة، وتمصير الأمصار، وعمران الثغور، وسك النقود، وتقنيات « المناظر » لم يلتفت لتدوينها أحد من المؤرخين.

***

ولقد قادتني هذه الحقائق والأفكار إلى طَرْق باب

تاريخنا في « المؤسسة والمؤسسات ».. فتلمست الخيوط إلى دراسة المؤسسات التي قامت عليها الدولة في عهد النبوة والخلافة الراشدة.. وأدركت أن هذه المؤسسات وإن غابت أو ضمرت وذبلت في إطار « الدولة والسلطة »، فإنها لم تغبْ عن فضاء « الأمة » على امتداد تاريخ الإسلام.. فكانت « الأمة » - بواسطة هذه « المؤسسات » - هي الصانعة والمبدعة لحضارة الإسلام.



وإذا كانت الصفحات التي نقدم بين يديها هي حصيلة محاضرة ألقيناها حول هذا الموضوع:

« المؤسسية والمؤسسات في الحضارة الإسلامية »

فإن خطر هذه القضية، ودورها في رؤية حقيقة تاريخنا الإسلامي.. وفي رد الاعتبار إلى أمتنا وتاريخها.. يستدعي من الذين يطمحون إلى إعادة كتابة هذا التاريخ أن يولوا هذه

القضية ما تستحقه من الاهتمام:

○ تسليط الأضواء التاريخية على «الأمة» و«الواقع»، مع «السلطة والسلطان».

○ ولملمة الوقائع لإعادة بناء تاريخ المؤسسات، ودورها في الإبداع لحضارة الإسلام.

إنه حقل علمي بالغ الأهمية والخطر.. ينتظر كتائب من شباب الباحثين الموهوبين الذين يخوضون هذا الميدان بروح المثابرين أولي العزم، الذين ينهضون بأداء فريضة «الجهاد الفكري».. الذي ينير الطريق أمام المجاهدين في مختلف الميادين...

والله نسأل أن يهيئ لهذا الجهاد جنوده.. إنه - سبحانه - خير مسؤول وأكرم مجيب.

١١ رجب سنة ١٤٣١هـ

الموافق ٢٣ يونيه سنة ٢٠١٠م.

أ.د. محمد عمارة

***

المؤسسية.. والمؤسسات في الحضارة الإسلامية[1]



تمهيد:

المؤسسات في الحضارة الإسلامية موضوع غائم في فكرنا وفي تراثنا، وسبب الغيوم التي أحاطت هذا الموضوع هو الاستبداد في تاريخنا، فالاستبداد لا يريد المؤسسة؛ لأن المؤسسة تعني تجميع الجهود لكي تكون أفعل.



(١) محاضرة ألقيت بمركز الدراسات المعرفية - المعهد العالمي للفكر الإسلامي - مساء الثلاثاء (١٣/ ١١/ ٢٠٠٧م)، الزمالك - القاهرة.

فأنا دائمًا أقول: إن الحضارة الغربية عبقريتها في المؤسسات، أمَّا نحن فمن أكبر الثغرات التي نعانيها غيبة المؤسسات، عندنا خير كثير، وعلماء مجدِّدون وعاملون، لكن أقول دائمًا: كل واحد فينا كالصنبور الذي ينزل منه الماء نقطة نقطة، فإذا اجتمعنا في مؤسسة فستصبح كالخرطوم.
يقول: عبد الرحمن الكواكبي (١٢٧٠- ١٣٢٠هـ/ ١٨٥٤ - ١٩٠٢م) عليه رحمة اللَّه: « إن الجمعيات تفي بما لا يفي به عمر الأفراد ». كل عالم وكل مجاهد يأتي الحين عليه فإما أن يمرض وإما يأتي أجله، لكن إذا كان عضوًا في مؤسسة فجهوده تظل مستمرة حتى بعد غيبة جسده، بالضبط مثل البحر تتبخر منه القطرات لكنه مستمر، إنما العمل المفرد الغائب عن المؤسسات يبقى مثل القطرات تتبخر، ولذلك موضوع « المؤسسة والمؤسسية » موضوع في غاية الأهمية.

***

(١)

أقول: إن المؤسسة في الحضارة الإسلامية وثيقة الصلة بطبيعة الإسلام؛ لأنه في النصرانية يكون التكليف فرديًّا، والذي يقيم النصرانية يقيمها وهو في شِعْبٍ مِن الشِّعاب أو مغارة من المغارات، وبعيدًا عن الناس، كفرد، يعني إقامة كامل النصرانية مرتبطة بالفرد. اليهودية تحولت إلى عنصرية؛ لأن تعريف اليهودي: هو «المولود لأم يهودية».

أما الإسلام فإنه يُعرَّف بأنه: «دين الجماعة»، الإسلام وثيق الصلة بفكرة الأمة؛ أي: بفكرة المؤسسة، فيه التكاليف الفردية، وفيه التكاليف الاجتماعية، التي تسمى في فقهنا: الكفائية، وبعض الناس - أحيانًا - يتصور أن فرض العين مؤكد وأهم من فرض الكفاية لأن كثيرًا من الفقهاء كانوا يضربون المثل على فرض الكفاية بصلاة الجنازة، فكانوا يتصورون أن في صلاة فرد واحد كفاية. إنما الحقيقة أن فروض الكفاية - الفروض الاجتماعية - أشد توكيدًا من فروض العين؛ لأن فرض العين التخلف عنه يقع إثمه على الفرد، في حين فرض الكفاية فرض اجتماعي؛ التخلف عنه يقع الإثم فيه على الأمة كلها.

حتى التكاليف الفردية في الإسلام عندما تؤدى في جماعة، في اجتماع، في نظام يكون ثوابها أكبر مثل الصلاة أو غيرها، حتى الصيام وهو فريضة وعبادة سرية، وليست

فقط فردية، توحد الأمة فتجعل الأمة على قلب رجل واحد، إذن فكرة الأمة.. فكرة المؤسسة لصيقة بطبيعة الإسلام منذ نزول هذا الدين.

***

(٢)

لقد جاء الإسلام والطابع الغالب في شبه الجزيرة العربية هو « القبيلة ». فالقبيلة مؤسسة، ولذلك الذين يتحدثون عن القبائل والعشائر باستهانة، في حين يكثرون من الحديث عن « منظمات المجتمع المدني »، فإن هذه منظمة، مجتمع مدني (القبيلة) يعني الأهل، القبيلة، العشيرة، الأقارب، هذه مؤسسة من المؤسسات، بل أنا أقول: إنها أولى درجات انتماء الإنسان، فالإنسان ينتمي لأهله، وعشيرته، وقبيلته، ينتمي لشعبه، ينتمي لأمته بالمعنى اللغوي، ينتمي لأمته بالمعنى الحضاري، وينتمي للإنسانية بشكل أوسع.

عندما وجد الرسول ﷺ هذه المؤسسة (القبيلة) كانت هي العالم، نهاية العالم لم يلغها، عندما أراد أن يؤسس « الأمة » لم يلغ القبيلة كمؤسسة، إنما جعل القبيلة لَبنَةً في جدار الأمة، ولذلك حتى في الحروب.... سألني أحدهم في « قناة الجزيرة » عن الأعلام والأناشيد حلال أم حرام؟ فقلت له: كانت القبائل في عهد الرسول ﷺ تحارب على راياتها؛ أي: إن هناك راية، رمز لهذه المؤسسة، لكنها مندمجة في جدار الأمة.

***

(٣)

يعرِّف الراغب الأصفهاني (٥٠٢هـ/١١٠٩م) الأمةَ بأنها: كل جماعة جمعهم أمر، إما دين واحد، أو زمان واحد، أو مكان واحد، سواء أكان ذلك الأمر تسخيرًا أم اختيارًا. ومصطلح «الأمة» ورد في القرآن الكريم في (٦٤) موضعًا.

إذن فكرة الأمة.... فكرة الجماعة.... فكرة المؤسسة أيضًا من الأشياء اللصيقة بالإسلام والتي تمثل علامة فارقة، مع ظهور الإسلام بعد النبوات والرسالات ودون النبوات والرسالات.

***

(٤)

(فكرة الدولة):

فالدولة مؤسسة، والأنبياء والمرسَلُون الذين أوحى اللَّه إليهم وجاءوا بشرائع، لم يقيموا دولًا، إبراهيم لم يقم دولة، موسى لم يقم دولة، عيسى لم يقم دولة، وإذا كانت هناك دولة في تاريخ بني إسرائيل فكانت في فترات محددة، واغتصابًا من أرض كنعان، والذين أقاموها ملوك، وليس الذين جاءوا بشريعة موسى، والذين حكموا من أنبياء بني إسرائيل في هذه الدولة كانوا « كالعُمَد والمشايخ » في القرى؛ ولذلك فإن حديث رسول اللَّه: « علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل »[1]، يُعدُّ تشبيهًا للحال بينهم؛ إنما الذي جاء بالشريعة اليهودية لم يقم دولة سواء أكان موسى أم هارون، ولذلك فإن الدولة علامة فارقة في تاريخ النبوات والرسالات، خاصةً في رسالة محمد ﷺ؛ لأن هذه الشريعة هي الخاتمة، وهي الخالدة، فكان لا بد من دولة تحرس هذه الشريعة وتُساس بهذه الشريعة، هذه ميزة من الميزات؛ ولذلك فإن الرسول ﷺ في

(١) قال السيوطي في (الدرر): لا أصل له، وقال في (المقاصد): قال شيخنا (يعني ابن حجر): لا أصل له، وقبله الدميري، والزركشي، وزاد بعضهم: ولا يعرف في كتاب معتبر، اهـ من (كشف الخفا) للعجلوني. قال الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة (١/ ٦٧٩): لا أصل له باتفاق العلماء، وهو مما يستدل به القاديانية الضالة على بقاء النبوة بعده ﷺ، ولو صح لكان حجة عليهم كما يظهر بقليل من التأمل.

أحاديث كثيرة تعرفونها جميعًا أنه أعطي خمسًا، منها مثل هذه الأمور.

كون الدولة في التاريخ الإسلامي أو (مؤسسة الدولة) لقد قلت: إن الموضوع غائم، لكن لحسن الحظ أن بعض المصادر اهتمت بالحديث عن معالم دولة النبوة، عن العمالات في دولة النبوة.. من أهم هذه المصادر التي حفظها التراث كتاب: « تخريج الدلالات السمعية »، للخزاعي (٧١٠- ٧٨٩هـ/ ١٠٢٦ - ١١٠٣م)، ومن أهمها أيضًا الكتاب الذي بُني على كتاب الخزاعي وزاد عليه « التراتيب الإدارية » الذي هو « نظام الحكومة النبوية » لعبد الحي الكتاني (١٢٦٨ - ١٣٣٣هـ/ ١٨٥٢ - ١٩١٥م)، وأيضًا الطهطاوي (١٢١٦ - ١٢٩٠هـ/ ١٨٠١ - ١٨٧٣م) في الجزء الرابع من أعماله الكاملة التي حققتها: كتاب « نهاية الإيجاز في سيرة الحجاز »، فضلًا عن الكتاب العمدة الذي اهتم بمصطلحات الدولة، وبوظائف الدولة وكل رموزها وهو كتاب: « صبح الأعشى » للقلقشندي (٧٥٦- ٨٢١هـ).

ولقد لمحت في عهد علي بن أبي طالب - كرم اللَّه وجهه - إلى واليه على مصر « الأشتر النخعي » (٣٧هـ/ ٦٥٧م) هذا العهد من النصوص التراثية التي فيها سياسة وإدارة عالية المستوى؛ لذلك عندما ألفت كتابي: « حقوق

الإنسان » جعلت جزءًا من الكتاب نصوصًا، منها هذا العهد. وهو يوصي الأشتر النخعي بكلمة عن مؤسسات الأمة لولاية مصر، التي سيذهب إليها، وطبقات الناس في هذه الولاية، وأركان الدولة، يقول له:

النص كاملًا:

(بسم اللّه الرحمن الرحيم، هذا ما أمر به عبد اللّه علي أمير المؤمنين، مالك بن الحارث الأشتر في عهده إليه، حين ولّاه مصر: جباية خراجها، وجهاد عدوّها، واستصلاح أهلها، وعمارة بلادها.

أمره بتقوى اللّه، وإيثار طاعته، واتباع ما أمر به في كتابه، من فرائضه وسننه، التي لا يسعد أحد إلّا باتباعها، ولا يشقى إلّا مع جحودها وإضاعتها، وأن ينصر اللَّه سبحانه بقلبه ويده ولسانه، فإنّه جل اسمه، قد تكفّل بنصر من نصره، وإعزاز من أعزه.

وأمره أن يكسر نفسه من الشهوات، ويزعها عند الجمحات، فإنّ النفس أمارة بالسوء، إلّا ما رحم اللَّه.

ثمّ اعلم يا مالك! أنّي قد وجهتك إلى بلاد قد جرت عليها دول قبلك من عدل وجور، وأن الناس ينظرون من أمورك في مثل ما كنت تنظر فيه من أمور الولاة قبلك، ويقولون فيك ما كنت تقول فيهم، وإنّما يستدل على الصالحين بما يجري اللَّه لهم على ألسن عباده، فليكن أحب الذخائر إليك

ذخيرة العمل الصالح، فاملك هواك، وشح بنفسك عمّا لا يحل لك، فإنَّ الشح بالنفس الإنصاف منها فيما أحبت أو كرهت.

وأشعر قلبك الرحمة للرعية، والمحبَّة لهم، واللطف بهم، ولا تكونن عليهم سبعًا ضاريًا تغتنم أكلهم، فإنَّهم صنفان: إمّا أخ لك في الدين، أو نظير لك في الخلق، يفرط منهم الزلل، وتعرض لهم العلل، ويؤتى على أيديهم في العمْد والخطأ، فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب وترضى أن يعطيك اللّه من عفوه وصفحه، فإنّك فوقهم، ووالي الأمر عليك فوقك، واللّه فوق من ولاك! وقد استكفاك أمرهم، وابتلاك بهم.

ولا تنصبن نفسك لحرب اللّه، فإنَّه لا يد لك بنقمته، ولا غنى بك عن عفوه ورحمته، ولا تندمن على عفو، ولا تبجحن بعقوبة، ولا تسرعن إلى بادرة وجدت منها مندوحة، ولا تقولن: إنّي مؤمر آمر فأطاع، فإنَّ ذلك إدغال في القلب، ومنهكة للدين، وتقرُّب من الغير، وإذا أحدث لك ما أنت فيه من سلطانك أبهة أو مخيلة، فانظر إلى عظم ملك اللّه فوقك، وقدرته منك على ما لا تقدر عليه من نفسك، فإن ذلك يطامن إليك من طماحك، ويكف عنك من غربك، ويفيء إليك بما عزب عنك من عقلك.

إياك ومساماة اللّه في عظمته، والتشبه به في جبروته، فإنَّ

اللّٰه يذل كل جبّار، ويهين كل مختال.

أنْصِفِ اللّٰه وأَنْصِفِ الناس من نفسك، ومن خاصّة أهلك، ومن لك فيه هوى من رعيتك، فإنّك إلا تفعلْ تَظْلِمْ! ومن ظلم عبادَ اللّٰه كان اللّٰه خصمه دون عباده، ومن خاصمه اللّٰه أدحض حجّته، وكان للّٰه حربًا حتّى ينزع أو يتوب.

وليس شيء أدعى إلى تغيير نعمة اللّٰه وتعجيل نقمته من إقامة على ظلم، فإنّ اللّٰه سميع دعوة المضطهدين، وهو للظالمين بالمرصاد.

وليكن أحب الأمور إليك أوسطها في الحق، وأعمها في العدل، وأجمعها لرضا الرعية، فإنّ سخط العامة يُجْحِفُ برضا الخاصّة، وإنّ سخط الخاصّة يُغْتَفَرُ مع رضا العامّة.

وليس أحد من الرعية أثقل على الوالي مؤونة في الرخاء، وأقل معونة له في البلاء، وأكره للإنصاف، وأسأل بالإلحاف، وأقل شكرًا عند الإعطاء، وأبطأ عذرًا عند المنع، وأضعف صبرًا عند ملمات الدهر من أهل الخاصّة.

وإنّما عماد الدين، وجماع المسلمين، والعدّة للأعداء، العامّةُ من الأُمّة، فليكن صفوك لهم، وميلك معهم؛

وليكن أبعد رعيتك منك، وأشنأهم عندك، أطلبهم لمعائب الناس، فإنّ في الناس عيوبًا، الوالي أحق من سترها، فلا تكشفنّ عمّا غاب عنك منها، فإنّما عليك تطهير

ما ظهر لك، واللّه يحكم على ما غاب عنك، فاستر العورة ما استطعت يسترِ اللّه منك ما تحب ستره من رعيتك.

أطلق عن الناس عقدة كل حقد، واقطع عنك سبب كل وتر، وتغاب عن كل ما لا ينصح لك، ولا تعجلن إلى تصديق ساعٍ، فإنّ الساعي غاشٌ، وإن تَشبّه بالناصحين.

ولا تدخلن في مشورتك بخيلًا يعدل بك عن الفضل، ويعدك الفقر، ولا جبانًا يضعفك عن الأمور، ولا حريصًا يزين لك الشره بالجور، فإنّ البخل والجبن والحرص غرائز شتّى يجمعها سوء الظن باللّه.

إنّ شر وزرائك من كان للأشرار قبلك وزيرًا، ومن شركهم في الآثام، فلا يكونن لك بطانة، فإنّهم أعوان الأثمة، وإخوان الظَلَمة، وأنت واجد منهم خير الخلف ممن له مثل آرائهم ونفاذهم، وليس عليه مثل آصارهم وأوزارهم وآثامهم مِمّن لم يعاون ظالمًا على ظلمه، ولا آثمًا على إثمه، أولئك أخف عليك مؤونة، وأحسن لك معونة، وأحنى عليك عطفًا، وأقل لغيرك إلفًا.

فاتخذ أولئك خاصّة لخلواتك وحفلاتك، ثمّ ليكن آثرهم عندك أقولهم بمر الحق لك، وأقلَّهم مساعدة فيما يكون منك ممّا كره اللّه لأوليائه، واقعًا ذلك من هواك حيث وقع.

والصقْ بأهل الورع والصدق، ثمّ رضهم على ألا يَطْروك ولا يبجحوك بباطل لم تفعله، فإنّ كثرة الإطراء تحدث الزهو، وتدني من العزة.

ولا يكونن المحسن والمسيء عندك بمنزلة سواء، فإنّ في ذلك تزهيدًا لأهل الإحسان في الإحسان، وتدريبًا لأهل الإساءة على الإساءة! وألزم كلًّا منهم ما ألزم نفسه.

واعلم أنّه ليس شيء بأدعى إلى حسن ظن راع برعيته من إحسانه إليهم، وتخفيفه المؤونات عليهم، وترك استكراهه إيّاهم على ما ليس له قبله.

فليكن منك في ذلك أمر يجتمع لك به حسن الظن برعيتك، فإنّ حسن الظن يقطع عنك نصبًا طويلًا، وإن أحق من حسن ظنُّك به لمن حسن بلاؤك عنده، وإن أحق من ساء ظنُّك به لمن ساء بلاؤك عنده.

ولا تنقض سنّة صالحة عمل بها صدور هذه الأمّة، واجتمعت بها الألفة، وصلحت عليها الرعية، ولا تحدثن سنّة تضر بشيء من ماضي تلك السنن، فيكون الأجر لمن سنّها، والوزر عليك بما نقضت منها.

وأكثر مدارسة العلماء، ومناقشة الحكماء، في تثبيت ما صلح عليه أمر بلادك، وإقامة ما استقام به الناس قبلك.

واعلم أنّ الرعية طبقات، لا يصلح بعضها إلّا ببعض، ولا غنى ببعضها عن بعض، فمنها: جنود الله، ومنها: كتاب العامّة والخاصّة، ومنها: قضاة العدل، ومنها: عمّال الإنصاف والرفق، ومنها: أهل الجزية والخراج من أهل الذمّة ومسلمة الناس، ومنها التجار وأهل الصناعات، ومنها الطبقة السفلى من

ذوي الحاجة والمسكنة، وكل قد سمى اللَّه له سهمه، ووضع على حدِّه فريضة في كتابه أو سنَّة نبيه (صلى اللَّه عليه وآله) عهدًا منه عندنا محفوظًا.

فالجنود بإذن اللَّه حصون الرعية، وزين الولاة، وعز الدين، وسبل الأمن، وليس تقوم الرعية إلّا بهم، ثم لا قوام للجنود إلّا بما يخرج اللَّه لهم من الخراج الذي يقوون به على جهاد عدوّهم، ويعتمدون عليه فيما يصلحهم، ويكون من وراء حاجتهم.

ثمّ لا قوام لهذين الصنفين إلّا بالصنف الثالث من القضاة والعمّال والكتّاب، لما يحكمون من المعاقد، ويجمعون من المنافع، ويؤتمنون عليه من خواص الأمور وعوامها.

ولا قوام لهم جميعًا إلّا بالتجّار وذوي الصناعات، فيما يجتمعون عليه من مرافقهم، ويقيمونه من أسواقهم، ويكفونهم من الترفق بأيديهم ما لا يبلغه رفق غيرهم.

ثمّ الطبقة السفلى من أهل الحاجة والمسكنة الذين يحق رفدهم ومعونتهم، وفي اللَّه لكلّ سعة، ولكلّ على الوالي حق بقدر ما يصلحه، وليس يخرج الوالي من حقيقة ما ألزمه اللَّه من ذلك إلّا بالاهتمام والاستعانة باللَّه، وتوطين نفسه على لزوم الحق، والصبر عليه فيما خف عليه أو ثقل، فولّ من جنودك أنصحهم في نفسك للّه ولرسوله ولإمامك، وأنقاهم جيبًا، وأفضلهم حلمًا، ممّن يبطئ عن الغضب، ويستريح إلى العذر، ويرأف بالضعفاء، وينبو على الأقوياء، وممّن لا يثيره

العنف، ولا يعقد به الضعف.

ثمَّ الصق بذوي المروءات والأحساب، وأهل البيوتات الصالحة، والسوابق الحسنة، ثمَّ أهل النجدة والشجاعة، والسخاء والسماحة، فإنَّهم جماع من الكرم، وشعب من العرف.

ثمَّ تفقَّد من أمورهم ما يتفقَّد الوالدان من ولدهما، ولا يتفاقمن في نفسك شيء قويتهم به، ولا تحقرن لطفًا تعاهدتهم به وإن قل، فإنَّه داعية لهم إلى بذل النصيحة لك، وحسن الظن بك، ولا تدع تفقد لطيف أمورهم اتكالًا على جسيمها، فإنَّ لليسير من لطفك موضعًا ينتفعون به، وللجسيم موقعًا لا يستغنون عنه.

وليكن آثر رؤوس جندك من واساهم في معونته، وأفضل عليهم من جدته، بما يسعهم ويسع من وراءهم من خلوف أهليهم، حتَّى يكون همّهم همًّا واحدًا في جهاد العدو، فإنَّ عطفك عليهم يعطف قلوبهم عليك، وإن أفضل قرة عين الولاة استقامة العدل في البلاد، وظهور مودَّة الرعية.

وإنَّه لا تظهر مودَّتهم إلَّا بسلامة صدورهم، ولا تصح نصيحتهم إلَّا بحيطتهم على ولاة الأمور، وقلَّة استثقال دولهم، وترك استبطاء انقطاع مدَّتهم، فأفسح في آمالهم، وواصل في حسن الثناء عليهم، وتعديد ما أبلى ذوو البلاء منهم، فإنَّ كثرة الذكر لحسن أفعالهم تهز الشجاع، وتحرض

الناكل، إن شاء اللَّه.....، مع حسن الثناء في العباد، وجميل الأثر في البلاد، وتمام النعمة، وتضعيف الكرامة، وأن يختم لي ولك بالسعادة والشهادة، (إنا إليه راجعون)، والسلام على رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وآله الطيبين الطاهرين، وسلَّم تسليمًا كثيرًا، والسلام)[1]. انتهى.

تحليل النص:

« واعلم أن الرعية طبقات لا يصلح بعضها إلَّا ببعض ولا غنى ببعضها عن بعض، فمنها: ١ - جنود اللَّه (مؤسسة عسكرية)، ومنها: ٢ - كتاب العامة والخاصة (مؤسسة)، ومنها: ٣ - قضاة العدل (مؤسسة قضائية)، ومنها: ٤ - عمال الإنصاف والرفق، ومنها: ٥ - أهل الجزية والخراج، ومنها: ٦ - التجار وأهل الصناعات، ومنها: ٧ - الطبقة السفلى من ذوي الحاجة والمسكنة.

ويتكلم عن أن كل هذه المؤسسات، وكل هذه الشرائح الاجتماعية لا غنى لأحد منها على أحد « فالجنود حصون الرعية وسبل الأمن، ثم لا قوام للجنود إلا بما يخرج اللَّه لهم من الخراج، ثم لا قوام لهذين الصنفين إلا بالصنف الثالث من القضاة والعمال والكتاب، ولا قوام لهم جميعًا إلا بالتجار وذوي الصناعات ».

---

(١) كتاب (الإسلام وحقوق الإنسان، ضرورات... لا حقوق) (ص ١٧٥) ومابعدها، د. محمد عمارة. طبعة دار الشروق الأولى، (١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م).

هذا نص موجود في (نهج البلاغة)[1]، يتحدث عن أركان الدولة ومؤسساتها.

***

دائمًا أقول: الذين يتصورون أن دولة المؤسسات هي ثمرة من ثمرات التطور الغربي والنهضة الغربية والأوربية والديمقراطية الغربية، واهمون. لماذا؟ لأنهم لم يدرسوا تراثنا ولا تاريخنا – وإن درسوا – وهذا عيب كبير إلى الآن في كتابة التاريخ الإسلامي، الذي كُتب كتاريخ للسلطان، أو تاريخ للدولة، وعادة وغالبًا ما يكون السلطان له وبه الكثير من العيوب والسلبيات والاستبداد، ولذلك عندما تقرأ كتب التاريخ تجده تاريخ الدولة، تاريخ السلطة والسلطنة والسلطان، أما تاريخ الأمة فغير مكتوب، ولذلك أقول: إذا أردنا أن نعيد كتابة تاريخنا فلا بد أن تكون هناك ثلاثة مصادر لكتابة هذا التاريخ:

أولًا: تاريخ الدولة، لا بد منه.

ثانيًا: كتب الخطط، التي تؤرخ للمكان، والاقتصاد، والعادات والتقاليد، وللأولياء، والصوفية، والأسواق، والتجارات، والخانات، والطرق، والكباري، ... للحياة، حتى للأحجار، تؤرخ للأبنية، كتب الخطط هذه مصدر إلى الآن لم يُستخدم، وفيها إبداع للحضارة الإسلامية لم تُسبق

(١) نهج البلاغة (ص ٣٣٣ – ٣٤٨) طبعة دار الشعب – القاهرة.

إليه من حضارة أخرى، هذا مصدر بدونه لا يمكن أن يكتب التاريخ الحقيقي للأمة والحضارة.

ثالثًا: الطبقات، طبقات العلماء، والشعراء، والفقهاء، والمحدثين، والمفسرين، حتى طبقات المغنين وغيرهم. إذن أين العلماء الذين أسهموا في تاريخ هذه الأمة، الذين قادوا الأمة على مر التاريخ؟ وليس السلطان والإدارة السلطانية هم الذين كان لهم القيادة والتفرد في صنع هذا التاريخ.

إذًا أقول: إن غيبة حقيقة وصورة المؤسسة في تاريخنا نابعة من أن هذا التاريخ كتب وكل الأضواء كانت مسلطة على السلطان، ولم يكتب تاريخ الأمة، لا من الخطط، ولا من الطبقات.

***

(٥)

لقد لمحت أن دولة النبوة بُنيت بالمؤسسات وعلى المؤسسات؛ فقد كان هناك ثلاث مؤسسات منذ اللحظة الأولى، فالدولة أُسست في بيعة العقبة قبل الهجرة بعام - بيعة العقبة - الأخيرة الثانية أو الثالثة وفقًا لاختلاف المؤرخين - وأُسست بعقد حقيقي، وليس عقدًا مفترضًا كما هي الحال في الفكر السياسي الغربي، عقد حقيقي، اجتمع المحكومون واتفقوا مع الحاكم على تأسيس الدولة، وعلى أن يهاجر إليهم ويحمونه مما يحمون منه أنفسهم وأموالهم وذراريهم. في بيعة العقبة ولدت إحدى المؤسسات الثلاث، نحن لدينا ثلاث مؤسسات بنيت عليها الدولة:

١ - المهاجرون الأولون.

٢ - النقباء الاثنا عشر.

٣ - مجلس شورى اسمه مجلس السبعين، وهذا المجلس تجدونه غائمًا وغائبًا في التراث الإسلامي. فأنا أول مرة في قراءاتي أعرف أنه يوجد مجلس يسمى مجلس السبعين، وأن مجلس الشورى هذا كان يجتمع في مسجد النبوة في مكان محدد في أوقات محددة (برلمان)، وتعرض عليه المشكلات - أول مرة قرأت هذه المعلومة كانت في كتاب اسمه: « السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات في عهد بني أمية » لـ « فان فلوتن »، أحد المستشرقين، بعدها عثرت على

إشارة أخرى في كتاب: «الدرر في اختصار المغازي والسير» لابن عبد البر (٣٦٨ - ٤٦٣هـ/ ٩٧٩ - ١٠٧١م)، فأجده يذكر شخصًا ما على أنه كان عضوًا في مجلس السبعين.

إذن هناك مؤسسة، لكنها غابت وغامت في تراثنا.

للأسف الشديد في تراثنا اختزلوا العشرة، نحن نعرف العشرة وهم:

- أبو بكر (٥٠ق.هـ - ١٣هـ/ ٥٧٣ - ٦٣٤م).
- وعمر (٤٠ق.هـ - ٢٣هـ/ ٥٨٤ - ٦٤٤م).
- وعثمان (٤٧ق.هـ - ٣٥هـ/ ٥٧٧ - ٦٥٦م).
- وعلي (٢٣ق.هـ - ٤٠هـ/ ٦٠٠ - ٦٦١م).
- وأبو عبيدة بن الجراح (٤٠ق.هـ -١٨هـ/ ٥٨٤ - ٦٣٩م).
- والزبير بن العوام (٢٨ق.هـ - ٣٦هـ/ ٥٩٦ - ٦٥٦م).
- وطلحة بن عبيد الله (٢٨ق.هـ - ٣٦هـ/ ٥٩٦ - ٦٥٦م).
- وسعد بن أبي وقاص (٢٣ق.هـ - ٥٥هـ/ ٦٠٠ - ٦٥٧م).
- وعبد الرحمن بن عوف (٤٤ق.هـ - ٣٢هـ/ ٥٨٠ - ٦٥٢م).
- وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل (٢٢ق.هـ - ٥١هـ/ ٦٠٠ - ٦٧١م).

قالوا عنهم « المبشَّرين بالجنة » - عظيم - هل « المبشر بالجنة » هذه وظيفة؟ أولًا: هم في قمة المبشرين بالجنة، لكن المبشرين بالجنة بنص القرآن هم كل المؤمنين، فنحن ليس لدينا مؤسسة اسمها مؤسسة المبشرين بالجنة، إنما الاستبداد غيَّب صفة هذه المؤسسة، وهي أنها مؤسسة دستورية سياسية، إحدى المؤسسات الثلاث التي قامت عليها الدولة، هؤلاء العشرة لماذا سموا « المهاجرين الأولين »؟ لأنهم أولًا هم مهاجرون؛ لأنهم أصلًا من قريش وهاجروا من مكة إلى المدينة، وأوَّلون؛ لأنهم أول الناس إسلامًا؟ فهاتان صفتان - المهاجرون الأوَّلون -.

أيضًا من مؤهلات العشرة أنهم كانوا زعماء وقادة بطون قريش، فأبو بكر من تيم، وعمر من عدي، وعثمان من بني أمية، وعلي من هاشم، وأبو عبيدة من فهر، والزبير من أسد، وطلحة من تيم، وسعد من زُهْرَة، وعبد الرحمن بن عوف من زهرة، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل من عدي، هؤلاء العشرة كانوا مؤسسة سماها أبو بكر « مؤسسة الأمراء » وسمى النقباء الاثني عشر « مؤسسة الوزراء ».

ومؤسسة النقباء الاثني عشر ولدت بالانتخاب - الانتخاب لم يأتنا من أوروبا - في بيعة العقبة، الذين عقدوا بيعة العقبة كانوا خمسة وسبعين (ثلاثة وسبعين رجلًا وامرأتين) فالمرأة شاركت في عقد تأسيس الدولة الإسلامية

وهي أعلى مستويات الولاية السياسية قبل أربعة عشر قرنًا، كان فيهم «أم عمارة نسيبة بنت كعب» و«أسماء بنت يزيد ابن السكن الأنصارية» (٣٠هـ/ ٦٥٠م).

الخمسة والسبعون عندما أرادوا بيعة رسول الله ﷺ قال لهم: «اختاروا منكم اثني عشر نقيبًا»، فولدت أولى المؤسسات (الوزراء، النقباء الاثني عشر) بالانتخاب، بالاختيار في بيعة العقبة.

المؤسسة الأولى - المهاجرون الأولون - كان من خصوصياتها عندما هاجر رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة، وبنى المسجد، والمسجد ليس فقط دار عبادة، بل دار حكومة ودار تعليم ودار تدريب على الحرب؛ أي: إنه المؤسسة الأولى، أو مكان المؤسسة الأولى للدولة، هؤلاء العشرة بيوتهم تحيط بالمسجد، ولها أبواب تفتح على المسجد - هذه ميزة ليست لأحد آخر غير هؤلاء العشرة - ولقد عثرت أيضًا على نص، فكأنما التقطتُ جوهرةً في كتاب «أسد الغابة»: العشرة في الصلاة مكانهم خلف رسول الله ﷺ ومكانهم في الحرب أمامه. إذن لهؤلاء صفة ومكانة مميزة.

أيضًا، كثير من الذين كتبوا عن الخلافة الراشدة أخطأوا واجتمعوا على الخطأ عندما قالوا: إن كل خليفة من الأربعة اختير بطريقة مختلفة، وهذا ليس صحيحًا؛ لأن غيبة فكرة

بقية العشرة، حتى عمر جعل ابنه عبد اللَّه معهم في المؤسسة، له رأي وليس له صوت؛ لأنه ليس عضوًا في المؤسسة.

أقول هذا الكلام لكي ندرك أن الإسلام فيه فكر دستوري قانوني، فلماذا يكون عبد اللَّه بن عمر عضوًا يقول رأيه، لكن ليس له صوت؟ لأنه ليس عضوًا في المؤسسة، هؤلاء اختاروا، عهدوا إلى عبد الرحمن بن عوف، فمكث ثلاثة أيام ليلًا ونهارًا لم يترك أحدًا في المدينة، كبيرًا أو صغيرًا، رجلًا أو امرأة، حرًّا أو عبدًا، إلا وسأله: تُرى من الخليفة بعد عمر؟

وهنا نقارن بين من الذي كانت له ديمقراطية في أثينا والمجتمع المسلم؟ قليل من الملان، والفرسان، والأحرار، يجتمعون في الميدان كل من عداهم برابرة ليست لهم حقوق. أما عبد الرحمن بن عوف فلم يترك رجلًا أو امرأة أو حرًّا أو عبدًا كبيرًا أو صغيرًا إلا وأشركه في الشورى فاختاروا « عثمان »، ثم استشهد « عثمان »، فجاء الثوار إلى « علي » ليبايعوه بالخلافة، قال: هذا ليس لكم، هذا للمهاجرين الأولين، للهيئة التي ترشح وتبايع البيعة الأولى، كان هناك من مات وهناك من اعتزل، ففكر علي بن أبي طالب أن يوسع الهيئة بأن يضم إليها بقية البدريين، لكن الأحداث، وأحداث الفتنة عاجلت الأمور.

أرأيتم كيف إننا أمام مؤسسة لها اختصاصات دستورية وسياسية وقانونية ترشح للخلافة، وتعقد البيعة الأولى، ثم

تُعقد البيعة العامة، وهي مؤسسة الأمراء، يُختار منها الخلفاء، ومعها المؤسسة الثانية وهي مؤسسة النقباء الاثني عشر.

النقباء الاثنا عشر:

- أبو أمامة أسعد بن زرارة بن عديس (١هـ/ ٦٢٢م).
- سعد بن الربيع (٣هـ/ ٦٢٥م).
- عبد اللَّه بن رواحة (٨هـ/ ٦٢٩م).
- رافع بن مالك (٣هـ/ ٦٢٥م).
- البراء بن معرور (١هـ/ ٦٢٢م).
- عبد اللَّه بن عمرو بن حرام (٣هـ/ ٦٢٥م).
- سعد بن عبادة بن دُلَيم (١٤هـ/ ٦٣٥م).
- المنذر بن عمرو بن خنيس (٤هـ/ ٦٢٥م).
- عبادة بن الصامت (٢٨ق.هـ - ٣٤هـ/ ٥٨٦ - ٦٥٤م).
- أُسيد بن حُضير (٢٠هـ/ ٦٤١م).
- سعد بن خيثمة بن الحارث (٢هـ/ ٦٢٤م).
- رفاعة بن عبد المنذر.

وكما أشرت، كيف توزعت الاختصاصات في السقيفة بين هاتين المؤسستين.

وأشرنا إلى المؤسسة الثالثة وهي: مجلس السبعين، كان يجتمع في مسجد النبوة في مكان محدد وفي أوقات

محددة، وعندما فُتحت فارس قال عمر: نحن نعرف اليهود والنصارى لكن هؤلاء مجوس يعبدون النار فعرض الأمر على مجلس السبعين فوثب عبد الرحمن بن عوف وقال: أشهد أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «سنوا بهم سنة أهل الكتاب»(١).

إذن كان لدينا هذه المؤسسات التي بنيت بها وعليها الدولة الإسلامية الأولى فعمر كان يعرض على مجلس الشورى قضايا الأمة، ومشكلات الأقاليم، والتقارير التي كانت تأتيه، وكان قد سنَّ تقليدًا أن يذهب إلى الحج فيلتقي بأمراء الولايات؛ لأن الدولة الإسلامية اتسعت في عهد عمر، وكان أيضًا يعرض هذه المشكلات على مجلس الشورى.

لما فتحت الأرض، في العراق (أرض السواد)، والشام، وفي مصر؛ أي: أودية الأنهار وأصبحت هذه الأرض أغنى ما يمكن أن يكون في يد الدولة الإسلامية، وطلب عدد كبير من الصحابة، في الجيش الفاتح، من عمر أن يوزع عليهم الأرض كما وزع رسول الله ﷺ أرض خيبر، فصارت

---

(١) حديث رقم (٦١٩)، الزكاة موطأ مالك، حديث رقم (١٤٣٦٣) كتاب النكاح، سنن البيهقي، حديث رقم (١٩١٢٥) كتاب الجزية، سنن البيهقي. وقال الشيخ الألباني في كتاب «مختصر إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل»: ضعيف.

مشكلة، وكانوا يهاجمون عمر (بلال وغيره) هجومًا شديدًا، وكان عمر يشتكي من هجومهم، فعرض الأمر على المهاجرين الأولين (مؤسسة) فاختلفوا، فاختار عشرة: خمسة من الأوس وخمسة من الخزرج للتحكيم. سوف أقرأ لكم النص لكي تعرفوا أن الدولة الإسلامية كانت دولة قانون، دولة شريعة وفكر دستوري.

النص كاملًا:

عندما جمع عمر بن الخطاب المسلمين للمشورة في قسمة أرض العراق التي فتحت عنوة، ثم خاطبهم قائلًا: (إني لم أزعجكم إلا لتشتركوا في أمانتي، فيما حملت من أموركم وإني واحد كأحدكم، وأنتم اليوم تقرون بالحق، خالفني من خالفني ووافقني من وافقني، ولست أريد أن تتبعوا هذا الذي هواي فيه، معكم من اللَّه كتاب ينطق بالحق، فواللَّه لئن كنت نطقت بأمر أريده، ما أريد به إلا الحق).

ولما قاطعه بعض الصحابة وأرادوا أن تقسم الأرض رد عليهم قائلًا: فكيف بمن يأتي من المسلمين فيجدون الأرض قد اقتسمت وورثت عن الآباء وحيزت؟ ما هذا برأي..

فيتساءل عبد الرحمن بن عوف: فما الرأي؟ ما الأرض إلا مما أفاء الله عليهم...

ويطالب بلال وعمرو بن العاص والزبير بن العوام بالقسمة.

ويطالب علي بن أبي طالب وعثمان ومعاذ بن جبل وطلحة بن عبيد الله وأبو عبيدة وعبد الله بن عمر بألا تقسم، وأن تبقى للمسلمين جميعًا، ويجمع الأنصار كلهم على ألا تقسم، ويحسم عمر بن الخطاب الخلاف وقد هداه الله إلى الدليل من القرآن - كما ورد في عدة مصادر بعدة صيغ - فيقول: قد بان لي الأمر وقد وجدت حجة من كتاب الله:

قال تعالى: ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ﴾ [الحشر: ٧]، ثم قال: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴾ [الحشر: ٨]، ثم لم يرض حتى خلط بهم غيرهم فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر: ٩]، ثم لم يرض حتى خلط بهم غيرهم فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [الحشر: ١٠]، فكانت هذه لمن جاء بعدهم إلى يوم القيامة؛ فقد صار هذا الفيء بين هؤلاء جميعًا، فكيف نقسمه لهؤلاء وندع من تخلف بعدهم بغير قسم، استوعبت هذه الآيات الناس كلهم فلم يبق أحد من المسلمين إلا وله فيها حق، قد عمت الخلق حتى الراعي

بكداء، لئن عشت ليأتين الراعي وهو بسرو حمير نصيبه منها لم يعرق جبينه. انتهى[١].

تحليل النص:

عندما كون عمر هذه الهيئة، أرسل إلى عشرة من الأنصار (خمسة من الأوس وخمسة من الخزرج) من كبرائهم وأشرافهم، فلما اجتمعوا قال لهم: « إني لم أزعجكم إلا لأن تشتركوا في أمانتي، فيما حملت من أموركم » هذه النصوص تحتاج إلى شرح؛ لأنها تمثل فلسفة، فلسفة الشورى، والشورى ملزمة، بعض الناس جاءوا بعد ذلك وقالوا: إنها معلمة: « فإني واحد منكم » - الذي يتكلم هنا عمر الملهم، الفقيه الذي كان القرآن ينزل مؤيدًا لما رآه، « وأنتم اليوم تقرون بالحق، خالفني من خالفني ووافقني من وافقني، ولست أريد أن تتبعوا هواي فيه، معكم من الله كتاب ينطق بالحق، والله لئن كنت نطقت بأمر أريده ما أريد به إلا الحق »، قالوا: « قل نسمع يا أمير المؤمنين، قال: قد سمعتم هؤلاء القوم الذين زعموا أني ظلمتهم حقوقهم، وإني أعوذ بالله أن أركب ظلمًا، ولكن رأيت ».

---

(١) أبو يوسف (كتاب الخراج) (ص ٢٣ - ٢٧، ٣٥) طبعة القاهرة (١٣٥٢هـ). وأبو عبيد القاسم بن سلام (كتاب الأموال) (ص ٥٧، ٥٨) طبعة القاهرة (١٣٥٣هـ). وطبعة دار الشروق - بتحقيقنا - القاهرة (١٩٨٩م).

انتبه! فهنا فلسفة الأموال، أن هذه الثروة ليست للفاتحين؛ لأنه ليست كل الأمة في الجيش الفاتح، وليست كل الأمة حاضرة كي توزع عليها هذه الثروة، فهناك أجيال ستأتي، هذه ثروة الأمة إلى أن يرث اللَّه الأرض ومن عليها، هنا نظرية الاستخلاف، المالك هو اللَّه والناس مستخلفون.

« أنه لن يفتح شيء بعد أرض كسرى، وقد غنمنا اللَّه أموالهم وأرضهم وعلوجهم فقسمت ما غنموا من أموال بين أهلها، وقد رأيت أن أحبس (الوقف) الأرضين بعلوجها وأضع عليهم فيها الخراج وأضع في رقابهم الجزية يؤدونها فتكون فيئًا للمسلمين من المقاتلة والذرية ولمن يأتي من بعدهم، أرأيتم هذه الثغور »...

هكذا أصبح للدولة وضع مختلف لا بد لها من رجال يلزمونها، « أرأيتم هذه المدن العظام (الشام، والجزيرة، والكوفة، والبصرة، ومصر)، لا بد لها من أن تشحن بالجيوش وإدرار العطاء عليهم، فمن أين يُعْطَى.هؤلاء إذا قسمت الأرضين والعلوج ».

عند ذلك حكمت هيئة التحكيم بصواب رأي عمر وقالوا له جميعًا: « الرأي رأيك فنعم ما قلت ورأيت ».

هذه مؤسسات الشورى التي حسمت قضية كانت تحتاج إلى حسم، وفي مواجهة اتجاه غالب من الصحابة، أو عدد كبير من الصحابة الذين شاركوا في الفتح.

وهذا – طبعًا – يثير قضية السُّنة التشريعية وغير التشريعية، فالرسول ﷺ كان قد قسم أرض خيبر؛ لأن هذا كان يحقق المصلحة، عمر لم يقسم أرض الأودية والأنهار؛ لأن عدم القسمة هو الذي يحقق المصلحة. إذن موضوع السنة العبادية شيء وموضوع السنة في السياسة شيء آخر.

* * *

(٦)

المؤسسة الثانية: مؤسسة الزكاة والعاملين عليها، مؤسسة فيها عمال وموظفون، (من يجبي، من يعطي، من يوزع، ومن يخزن) إذن هذه أيضًا مؤسسة ارتبطت بالدولة الإسلامية.

* * *

(٧)

هناك مؤسسة شديدة الخطر هي مؤسسة الوقف، هي المؤسسة الأهلية الأم التي مولت صناعة الحضارة الإسلامية وتجديد الحضارة الإسلامية، وهي التي حققت في ذلك التاريخ نسبة من العدل الاجتماعي لا نظير لها في أية حضارة من الحضارات.

الوقف مؤسسة بدأت مع الدولة الإسلامية الأولى، فقد أوجد الرسول ﷺ (الحمى) الوقف، فحمى أرضًا في النقيع لخيل المسلمين وفي الربذة لإبل الصدقة. ولقد أسلم أحد اليهود واستشهد عام إسلامه - (مخيرق بن النضر) - فتبرع بسبع بساتين كان يملكها وتركها لرسول اللّه ﷺ يصنع بها ما يشاء، فأوقفها رسول اللّه ﷺ، هذه بدايات تأسيس مؤسسة الوقف في الدولة الإسلامية الأولى.

كانت لعمر بن الخطاب أرض في مكان يقال له (الشرف)، كانوا يسمونه: (كبد نجد) أوقفها وأضافها للنقيع، وكانت له كذلك أرض هي أثمن شيء ملكه عمر - في خيبر - فعرض على رسول اللّه ﷺ أن يتصدق بها، فقال الرسول ﷺ: « **تصدق بأصلها لا يباع ولا يوهب ولا يورث ولكن ينفق ثمرها** »[1] فكانت أقدم حجة وقف في تاريخ الحضارة

---

(١) حديث رقم (٤٤٨٠) الأحباس، سنن الدارقطني.

الإسلامية، تلك التي كتبها عمر بن الخطاب: « هذا ما كتب عبد اللَّه بن عمر بن الخطاب في « ثمغ » (اسم مكان الأرض) أنه لا يباع أصلها ولا يوهب ولا يورث. للفقراء والقربى والرقاب وفي سبيل اللَّه وابن السبيل والضعيف والضيف لا جناح على من وليها أن يأكل منها بالمعروف ويطعم صديقًا غير متمول فيه ».

هذه بدايات مؤسسة الوقف، والتي هي أخطر المؤسسات في تاريخ الحضارة الإسلامية.

فلما زادت الأوقاف في عهد « عبد الملك بن مروان » أنشأ لها ديوانًا.

والملاحظ أن كل هذه المؤسسات مؤسسات أهلية، وليست تابعة للدولة، فأنشئ في عهد عبد الملك بن مروان (٧١ - ١٢٥هـ/ ٦٩٠ - ٧٤٣م) ديوان « للأحباس » يشرف عليه القاضي. وفي العصر العباسي كان يشرف على الوقف ما يسمى « صدر الوقوف ». وفي عهد الظاهر برقوق (٧٣٨ - ٨٠١هـ/ ١٣٣٨ - ١٣٩٨م) بلغت الأراضي الموقوفة نصف أراضي الدولة.

وأريد أن أقول: إن الوقف هو المؤسسة التي حققت - بصدق - ملكية الأمة؛ لأن مالك الرقبة الحقيقي في الأموال هو اللَّه ﷻ، والناس مستخلفون فيه، مطلق الناس وليس حزبًا ولا حكومة.

لقد اتضح أن الاشتراكية هي رأسمالية دولة أو حزب أو حكومة، إنما الذي حقق الملكية العامة حقيقة، ملكية الأمة، نظرية الاستخلاف - هو الوقف. ولذلك فإن العلماء يتكلمون في تعريف الوقف فبعضهم يقول: إنه إخراج المال إلى غير مالك - ابن حزم (٣٨٤ - ٤٥٦هـ/ ٩٩٤ - ١٠٦٤م) بعبقريته قال: « إنه إخراج المال إلى خير المالك »، إلى الله ﷻ. الله استخلفك فيه، فأنت تعيده لصاحبه. والمستخلف هو الأمة.

كان الوقف يؤدي أدوارًا كثيرة، غير موضوع التمويل والعدل، كان يؤدي دور حماية الأموال من المصادرات، فالحاكم الظالم الذي يصادر أموال الناس لا يستطيع أن يصادر الوقف؛ لأن هذا له حرمة، وعلى مر التاريخ كان للوقف حرمة، ولذلك تجد من عنده مال ويخاف عليه من المصادرة يوقفه ويجعله وقفًا أهليًا على أولاده، فكأنه بذلك ملك له ولكنه حماه من المصادرة ومن العدوان عليه؛ طبعًا لأن شرط الواقف كان كحكم الشارع؛ أي: أن شرط الواقف فوق الدولة.

إذن هذه فكرة إسلامية وخصوصية إسلامية غير مسبوقة، فكرة أن العلماء، والفقهاء، والشريعة فوق السلطة التنفيذية.

في كل الدول، الدولة هي التي تصنع القانون، وهي التي تغيره. في الإسلام، القانون فوق الدولة، فلا تستطيع تغييره،

لذلك عندما يقولون: إن هناك مؤسسات ثلاث: تشريعية وتنفيذية وقضائية، نقول: إنه توجد سلطة رابعة، سلطة الاجتهاد، سلطة الفقهاء (بعض الناس لا يعجبهم أن يكون هناك رأي للعلماء)!

* * *

أريد أن أشير إلى ما كان يفعله الوقف؛ لأن الحضارة الإسلامية حضارة إنسانية، فالوقف ليس فقط بناء مساجد ومستشفيات، بل كان هناك في القرن التاسع عشر أوقاف على الأسطول المصري، فالدولة هي التي تقود الجهاد، لكن الأمة هي التي تمول الجهاد، كل هذا كان عملًا أهليًا.

ومن نتائج الوقف حقيقة في غاية الخطورة، هي: تعظيم الأمة وتحجيم الدولة. الدولة في التراث الإسلامي كان حجمها محدودًا، ولذلك انحرفت الدولة منذ وقت مبكر، ومع ذلك فحضارتنا كلها بنيت في ظل انحراف الدولة، وهذا ما لا يستطيع أن يفهمه العلمانيون، يقولون: إن (٩٩٪) من التاريخ ظلام، لماذا؟ لأن عينهم فقط على السيف والحاكم، ولم يروا الأمة. لقد كانت الدولة حجمها محدود. فمعاوية (٢٠ق.هـ - ٦٠هـ/ ٦٠٣ - ٦٨٠م) وقد كان هو من هو، قال: ليدع لنا الناس الكرسي وليفعلوا ما يشاءون، « يخلوا بيننا وبين السلطان ونخلي بينهم وبين ألسنتهم »، فترك لهم البراح يفعلون ما يريدون، فالدولة كان

حجمها محدودًا، كانت تقود الجهاد، نعم، لكن الذي يصنع الحضارة الإسلامية والدفاع عنها كان هو التمويل الأهلي من الأوقاف، تبني المساجد، والمكتبات، والمدارس، ونسخ المخطوطات، وعندما نقول نسخ المخطوطات، فإننا نقصد ما كان في القاهرة في الدولة الفاطمية، كان في المكتبات ملايين المخطوطات، ولم يكن هناك مطبعة، تاريخ الطبري (٣٠) جزءًا في أكثر من ألف نسخة في المكتبة، وقد نافس النسخُ الطباعةَ! من يُرِدْ أن يقرأ في المكتبة يذهبْ، فيجدْ من يعطيه الكتاب والحبر والورق والقلم ويخدِّم عليه، كل هذا من الوقف، والمساجد كلها كان فيها مكتبات، هذا بخلاف دار الحكمة، وبيت الحكمة، ونسخ المخطوطات، ورعاية المخطوطات، الحفاظ على التحف والآثار والعاديات.

كل هذه مرافق لها أوقاف، إقامة الخوانق لأقطاب التصوف ومريديه، إنشاء المكاتب القائمة على تحفيظ القرآن في المدن والقرى، إقامة المستشفيات (البيمارستانات) وإنشاء الطرق وتعديلها وصيانتها، كل هذه أوقاف، تحرير الأسرى بافتدائهم، والإنفاق عليهم وعلى عائلاتهم، رعاية أبناء السبيل حتى يعودوا إلى المنازل والديار، المعاونة على تأدية فريضة الحج، وتجهيز الحلي والمصاغ للعروس التي لا تستطيع ليلة زفافها أن تشتري هذه الأشياء، هناك وقف الصحون (لمن عنده حفل) وأكثر من ذلك، الخادم الذي يكسر صحنًا يأخذه من

الوقف بدلًا من أن يضربه سيده (أرأيت كم بلغت الإنسانية في الأوقاف)؟! رعاية النساء الغاضبات (إذا غضبت امرأة متزوجة من زوجها وليس لها أهل في البلد، هناك مساكن ومشرفات، يُنفق عليها الوقف وتعيش فيها إلي أن يتم الصلح)، عمارة الرباطات (الرباط والجهاد في سبيل اللّه)، إعالة العميان والمقعدين وذوي العاهات والأمراض المزمنة، تطبيب الحيوانات والطيور، إيواء ورعاية الحيوانات الأليفة.

ووقف يسمى نقطة الحليب (إذا كانت امرأة ترضع صغيرها، وصدرها ليس به رضاع؛ تذهب إلى الوقف وتأخذ لبنًا لطفلها)، تهيئة طعام الإفطار والسحور للفقراء، حدائق مخصصة؛ ثمارها وظلالها لعابري السبيل يأخذون منها الفاكهة على مدار العام، تجهيز موتى الغرباء والفقراء، بناء مقابر الصدقة، الإنفاق على الحرمين الشريفين، الإنفاق على الضيوف، إقامة أسواق التجار، ومؤسسات الصناعة، الخانات (الفنادق)، الأفران والمخابز، الحمامات العامة، الأسبلة، العبَّارات، مؤسسة الرعاية التي يعيش فيها المعوقون وأصحاب الأمراض المزمنة، مؤسسات رعاية الأيتام، رعاية المسجونين وأسرهم، تسليف المحتاجين دون عوض، تزويج المحتاجين والمحتاجات، إقامة الأرحية (المطاحن)، إنشاء القناطر والجسور.

هذه بعض عناوين المرافق التي موِّلت بالأمة، بمؤسسة

الوقف؛ لذلك أقول: إن الذي صنع الحضارة الإسلامية هي الأمة، حتى العلماء كانوا في أحضان الأمة لم يكونوا مع السلطان، صحيح كان هناك بعض فقهاء السلاطين، لكن لِنَرَ: أبو حنيفة (٨٠ - ١٥٠هـ/ ٦٩٩ - ٧٦٧م) لم يرض أن يتولى القضاء، وضُرب الإمام مالك (٩٣ - ١٧٩هـ/ ٧١٢ - ٧٩٥م) لفتواه، والإمام الشافعي (١٥٠ - ٢٠٤هـ/ ٧٦٧ - ٨٢٠م) هرب بأعجوبة، والإمام ابن حنبل (١٦٤ - ٢٤١هـ/ ٧٨٠ - ٨٥٥م) نعرف محنته.

إذن كانوا يقفون بعيدًا عن التبعية للدولة. فقد كانت هناك فكرة استقلال العالم والعلم. ما الذي جعل العز ابن عبد السلام (٥٧٧ - ٦٦٠هـ/ ١١٨١ - ١٢٦٢م) سلطانًا للعلماء؟ وما الذي جعل الظاهر بيبرس (٦٢٥ - ٦٧٦هـ/ ١٢٢٨ - ١٢٧٧م) - وهو من هو بطل شعبي، أسطورة - عندما رأى جنازة العز بن عبد السلام بجوار القلعة قال: الآن استقر بي العرش؟! ما الذي جعل سلطان العلماء سلطته أعلى من سلطة الأمراء؟ لأنه يتمول من الوقف؛ لأنه لو مد يده فلن ينطق، إلا أنه منذ أن تحول المثقف والعالم والصحفي إلى موظف لدى الدولة انتهى الاستقلال.

نحن لا نريد علماء يناطحون الحكام، إنما نريد أن تكون هناك مسافة، استقلال؛ لكي يكون هناك استقلال في الفكر والرأي وأمانة في كل هذه الأمور.

الوقف هو الذي حقق كل هذه الميزات، ولذلك لما جاءت الدولة القومية - كالغول تطعمك وتسقيك وتكتم أنفاسك - مع محمد علي (١١٨٤ - ١٢٦٥هـ/ ١٧٧٠ - ١٨٤٩م) بدأت تجور على الأوقاف وتستولي عليها، من هنا حدث الذي حدث للأزهر، ثم جاءت نظم العسكر فأجهزت على الوقف.

***

(٨)

هناك مؤسسة أخرى هي: مؤسسة الحسبة، الحسبة هي مؤسسة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وضمن ولايتها الأسواق والتجارات، ومنذ عهد الرسول ﷺ تولت الحسبة امرأة (سمراء بنت نُهَيْك)، وفي عهد عمر تولتها (الشفاء بنت عبد اللَّه)، وكتب في الحسبة تراث كثير، وكتبت فيها رسائل جامعية أيضًا.

❁❁❁

(٩)

أريد أن أشير إلى مؤسسة قد يستغربها بعض الناس، في عهد رسول اللَّه ﷺ؛ حيث كان هناك جمعية نسائية تطالب بحقوق المرأة.

فالإسلام أنصف المرأة، لكن المرأة لم تكن جالسة ومنتظرة أن يأتيها الإنصاف كالمطر، بل كانت تجاهد وتكافح، وقد قامت مظاهرة نسائية في المدينة.

عندما نقرأ في كتب السنة (باب وافدة النساء) لأسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية (٣٠هـ/ ٦٥٠م) والتي شاركت، هي وأم عمارة، في بيعة العقبة، وطبعًا شاركن في القتال –وقد كتبنا ذلك في كتاب « التحرير الإسلامي للمرأة » وغيره– عندما تذهب (أسماء) إلى رسول اللَّه ﷺ – وأنا أريد أن أثبت بنص كتب السنة أن هناك جمعية اجتمعت، واتخذت قرارات، وذهبت أسماء لإبلاغها للنبي ﷺ وقالت: « أنا رسول مَنْ خلفي من نساء المؤمنين يقلن بقولي وهن على مثل رأيي، إن اللَّه بعثك للرجال والنساء، وقد غلبنا الرجال عليك، فاجعل لنا يومًا تعلمنا فيه... » إلى آخر ما هو موجود في الكتب –.

* * *

(١٠)

إذن هذه مؤسسة وجمعية موجودة. أريد أن أشير إلى أننا نقرأ في الكتب عن الفرق الإسلامية، هذه الفرق مؤسسات، أحزاب، جمعيات، تنظيمات، هي والمذاهب الفقهية، إلا أننا لم نلتفت إلى أن الفرق ليست مجرد آراء.

وأشير إلى نموذج من هذه الفرق، وهي « المعتزلة »، «واصل بن عطاء» (٨٠ - ١٣١هـ/ ٦٩٩ - ٧٤٨م) كان رئيس الفرقة، وزعيم الحزب، « عثمان الطويل »، وهو أحد القادة في المعتزلة يقول: إن « واصل » كان يملك نفوس المعتزلة دون أصحاب هذه النفوس « ما كنا نرى أن لنا ملكًا على أنفسنا في حياة واصل حتى مات؛ كان يقول لواحد منا اخرج إلى بلد كذا فما يراده » (تنظيم).

كان عثمان الطويل تاجرًا، ولديه تجارة كبيرة، فأمره واصل بالذهاب إلى أرمينيا، فقال له: إن عندي تجارتي وأنا مستعد للتنازل عن نصفها لمن يذهب بدلًا مني، فقال له واصل: كلا، تذهب وتتاجر وتمارس الدعوة، فذهب وفتح الله عليه.

كانت البصرة مقر قيادة هذا التنظيم، أما دعاته وشُعبه وأنشطته فامتدت خارجها فشملت مختلف أنحاء الدولة العربية الإسلامية من الصين شرقًا إلى المغرب غربًا ومن اليمن جنوبًا إلى الجزيرة في الشمال، هناك شاعر - صفوان الأنصاري - تكلم عن واصل بن عطاء، وأشار إلى التنظيم:

لـه خلف شعب الصبن في كل ثغرة

إلى سوسها الأقصى وخلف البـرابر

رجـال دعــاة لا يفـل عــزيمهم

تـهكمُ جبــار ولا كيــد مـاكـر

إذا قــال مروا في الشتــاء تـطاوعـوا

وإن كــان صيف لم يخف شهر ناجر

بـهجـرة أوطــان وبــذل وكـلـفـة

وشــدة أخطــار وكــد المســافـر

فـأنجـح مسعاهـم وأتـعب زنـدهم

وأورى بفـلـج لـلمخـاصم قـاهـر

وأوتــاد أرض الله في كــل بـلـدة

ومـوضع فتياها وعلم الـتشاجر(١)

ومـا كــان سحبـان يشق غبارهـم

ولا الشـدق من حي هـلال بن عـامر

كان لهذا التنظيم تقاليد غريبة، فكان يرسل شخصًا ما لبلد ما ليعمل بالدعوة، فيقال له: تذهب إلى المسجد، وتلزم أحد الأعمدة، تصلي جوار هذا العامود مدة سنة، إلى أن يرى الناس؛ يعرف الناس مكانك ومكانتك. فيبدؤون بسؤاله،

---

(١) علم التشاجر - علم الجدل - علم الكلام.

فيفتي بمذهب الحسن البصري (٢١ - ١١٠هـ/ ٦٤٢ - ٧٢٨م) سنة، ثم يطرح الأصول الخمسة للمعتزلة.

ولقد أرسل واحد منهم ليناظر زعيم الجبرية « الجهم بن صفوان » (١٢٨هـ/ ٧٤٥م) فأوصاه واصل بنفس الوصية - سنة - إلى أن عرف مكانه ومكانته، ثم لكي يبدأ المناظرة (لكي تتضح لكم مسألة التنظيم) سيبدأ المناظرة يوم كذا الساعة كذا، كل التنظيم في جميع أنحاء البلاد الإسلامية يصلون ويدعون له في نفس اللحظة أن ينصره اللَّه!

هذا الكلام يبين أن موضوع الفرق ليس مجرد كلام وآراء ونظريات، ولكنها مؤسسات.

***

بالطبع هناك جمعيات (تنظيمات) مثل: تنظيمات الشيعة السرية، جمعيات فلسفية سياسية « كإخوان الصفا ».

كما أن المذاهب الفقهية مؤسسات؛ ولذلك فإن « الليث ابن سعد » (٩٤ - ١٧٥هـ/ ٧١٣ - ٧٩١م) كان أفقه من الإمام مالك (٩٣ - ١٧٩هـ/ ٧١٢ - ٧٩٥م) لكنه لم يجد من يقوم بفقهه، أمَّا مالك فقد وجد مؤسسة تقوم بفقهه، وأبو حنيفة كذلك كان هو وأصحابه يطرحون القضية ويتبادلون الرأي فيها والاجتهاد والتفقه عدة شهور، ثم تدون، حتى أحكام المذهب كانت توضع بواسطة مؤسسة. إذن المذاهب الفقهية أيضًا كانت مؤسسات في تراثنا.

(١١)

وقد كانت الصوفية من أهم المؤسسات في التراث الإسلامي؛ ولذلك كانوا يسمونها: الفقراء (مؤسسة للفقراء)، مؤسسة في الجهاد، فالصوفية كانوا في طليعة المجاهدين، مؤسسة في نشر الإسلام، انظروا دور الصوفية في أفريقيا، في نشر الإسلام، وفي الجهاد في سبيل الإسلام، وضد الاستعمار، وفي الحفاظ على الإسلام، انظروا دور مؤسسات التصوف في تركيا، حينما جاء كمال أتاتورك (١٨٨١ - ١٩٣٨م) وقال: إن الطبيعة هي اللَّه. من الذي حفظ إيمان الشعب التركي إلى أن جاء حزب العدالة وغيره.

إن مؤسسات التصوف أدّت دورًا رياديًا وقياديًا وأساسيًا في الحفاظ على الإسلام في الكثير من البلاد.

***

(١٢)

الحرف والصناعات.

ماسينيون (١٨٨٣ - ١٩٦٢م)، المستشرق الفرنسي، له دراسة - لست أدري إن كان أحدٌ قد اهتم بها أو طورها - عن الحرف والصناعات، كل حرفة وصنعة، وقد كانوا يعتبرون الإمام عليًا زعيم كثير من الحرف، وعندما يأتي الصبي ويدخل الحرفة، لكي يترقى يقام حفل، له طقوس معينة وأدعية وكلمات معينة.

ودور الحرف والصناعات في مقاومة الاستعمار معلوم، فعندما نقرأ ما كتب الجبرتي (١١٦٧ - ١٢٣٧هـ/ ١٧٥٤ - ١٨٢٢م) في مقاومة الحملة الفرنسية، ونرى دور الصناع والتجار والحرفيين، كل الحرف والصناعات شاركت؛ لأنه كانت هناك تنظيمات - مؤسسات لكل منها رئيس ورأي، واجتماع، ومستوى أعلى ومستوى أدنى - فدور الحرف والصناعات ومنظماتها في مقاومة الظلم في العصر المملوكي العثماني وإبان الحملة الفرنسية شهير.

***

(١٣)

والأزهر (مؤسسة)، كان فيه أربعة مذاهب، كل مذهب له شيخ، وكانوا يختارون منهم الشيخ الأكبر (نحن نسميه الآن الإمام) أو شيخ الشيوخ أحيانًا.

***

(١٤)

أيضًا عثرت على حقيقة ووضعتها في كتاب (الإسلام وحقوق الإنسان) كان هناك ما يسمى بـ « مجلس الشرع »، كانت مؤسسة في مصر، هذا المجلس هو الذي عزل الوالي التركي (١٨٠٥م)، وهو الذي عين محمد علي، وأصدر (وثيقة الحقوق)، التي تكلم عنها بعض الأجانب، ولقد نشرت نصها في الوثائق في كتاب (الإسلام وحقوق الإنسان).

قال مجلس الشرع: إن الأمة هي مصدر السلطات. حينما قال الوالي: إنني معين من قبل السلطان فلا يستطيع أحد أن يعزلني، فقال له عمر مكرم (١١٦٨ - ١٢٣٧هـ/ ١٧٥٥ - ١٨٢٢م): « لقد جرت العادة على مر الدهور أن أهل الشرع يعزلون من لا يسير تبعًا للشريعة حتى ولو كان الخليفة »[1].. هذا الكلام الذي أعلنه مجلس الشرع في بيت القاضي في (١٣ صفر ١٢٢٠هـ) في (مايو ١٨٠٥م) - أعلنه كمؤسسة -.

***

---

(١) كتاب (الإسلام وحقوق الإنسان، ضرورات... لا حقوق) (ص ٢٠٦) وما بعدها، د. محمد عمارة، طبعة دار الشروق الأولى، (١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م).

(١٥)

آخر شيء هو الأحزاب السياسية:

أول من أنشأ الأحزاب السياسية في الشرق هم الإسلاميون: جمال الدين الأفغاني (١٢٥٤ - ١٣١٤هـ/١٨٣٨ - ١٨٩٧م) قبل العلمانيين، وقبل الانفتاح على أوروبا.

وعندما حققت أعمال محمد عبده (١٢٦٦ - ١٣٢٣هـ/ ١٨٤٩ - ١٩٠٥م) والأفغاني وجدت محمد عبده قد كتب أوراقًا هي: (لائحة تنظيم العروة الوثقى).

أقام جمال الدين الأفغاني في سبعينيات القرن التاسع عشر « الحزب الوطني الحر »، أول حزب في تاريخ الشرق، وكان معه محمد عبده.

وبعد الثورة العرابية، أسس تنظيمًا أمميًا - (جمعية العروة الوثقى) - من المغرب للهند. وأصدر مجلة « العروة الوثقى » لسان حال التنظيم السري. كتب محمد عبده اللائحة، وبقي منها بعض أوراق نشرتها الخلية يسمونها: عقدًا، فكرة تنمية الأموال للعقد، فكرة خضوع المستوى الأدنى للمستوى الأعلى. ووجدت أن هذه الخبرات التنظيمية لم تكن قد عرفت في أوروبا في ذلك التاريخ، في ثمانينيات القرن التاسع عشر. أول معرفة أوروبا بقواعد التنظيم الحديدي للأحزاب عرفت في حزب لينين (١٨٧٠ - ١٩٢٤م) في (١٩٠٣م)، فاستنتجت أن هذا

تراث التنظيمات والمؤسسات في تاريخ الأمة، فالأفغاني ومحمد عبده حين كتبوا هذه اللائحة وهذه القواعد التنظيمية، ولم تكن أوروبا قد وصلت بعد إلى هذا التقدم في التنظيم الحزبي، فمن ثمَّ استفادوا من تراث الأمة والجمعيات والمؤسسات التي كانت في تاريخها. طبعًا « الحزب الوطني الحر »، و « جمعية العروة الوثقى »، والكواكبي (١٢٧٠ - ١٣٢٠هـ/ ١٨٥٤ - ١٩٠٢م) أنشأ « جمعية أم القرى » وتأسست بالمؤتمر الذي عقد في مكة، وجاء فيه بالمسلمين العرب وغير العرب والمسلمين في الدولة العثمانية ليدرسوا « حالة الفتور » التي أصابت الأمة، وطريق النهوض، وهي موجودة في كتابه: « مذكرات جمعية أم القرى »[1].

***

(١) انظرها في أعماله الكاملة - التي حققناها - طبعة دار الشروق (٢٠٠٧م).

(١٦)

ولا ننسى مؤسسة القضاء، التي كانت من أكثر المؤسسات وأخطرها تفعيلًا في تاريخ حضارة الإسلام. إذن نحن لسنا فقراء، في حضارتنا، في المؤسسات، إنما حدث غبش، تعمية على هذا التراث لحساب الاستبداد في تاريخنا.

وكما قلت: إن فكرة المؤسسة وثيقة الصلة بالدعوة الإسلامية؛ لأن الإسلام دين الجماعة، الإسلام أسس أمة، ولن تجد في تاريخ اليهود أمة، ولن تجد في النصرانية - كنصرانية - أمة، إنما الأمة وثيقة الصلة بالإسلام. حتى محمد عبده عندما فسر الآية: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ [آل عمران: ١٠٤] تكلم عن أن هذه الأمة جماعة أخص من الأمة بالمعنى العام، جماعة لها صفات، كأنهم أعضاء في جسد واحد؛ لأن لهم شروطًا معينة، ففكرة المؤسسة وفكرة المؤسسية فكرة عريقة في تاريخنا، ولكنها تحتاج من ينبش عن معالمها، من يكشف عنها الغبار الذي وضعه عليها الاستبداد، ولذلك، كما قلت في البداية: لقد أحسن المركز في اختيار هذا الموضوع، ولعله يكون حافزًا لعدد من الباحثين أن يواصلوا البحث والتنقيب عن دور المؤسسات في تاريخنا وتراثنا وحضارتنا، وأهمية المؤسسات في إنهاض الأمة الإسلامية، وإخراجها من الواقع الذي تعيش فيه.

التعليقات



أ. د. رفعت العوضي:

شكرًا لأستاذنا الدكتور محمد عمارة، وأدعو الله ﷻ أن يجزيه خير الجزاء على ما قدمه في هذا اللقاء الطيب المبارك.

ونحن نهدف من هذه اللقاءات إلى المساهمة في أن تعود أمتنا إلى سابق مجدها.

ونتمنى بعد هذه المحاضرة أن يصبح الإسلام هو القبلة التي نعود إليها.



وقد سجلت فقرات كثيرة فيما يتعلق بهذه المحاضرة، وكما قال أستاذنا في آخر المحاضرة دعوة للباحثين، إن كل واحد من الموضوعات التي تكلم عنها أستاذنا يصلح أن يكون موضوع بحث، شدني كثيرًا موضوع المؤسسات الثلاثة، فالمسألة لم تكن عفوية كما يذكرها التاريخ، وليت في الباحثين من ينهض على موضوع المؤسسات الثلاثة.

وقد تكلم الدكتور عن مؤسسة الزكاة، وفي الحقيقة أنا دائمًا أقول: إن الزكاة ولدت مؤسسية، كذلك تكلم عن مؤسسة الوقف، والذي يعد صانع الحضارة الإسلامية.

وهنا يشير أستاذنا إلى أن المؤسسات الفكرية والعلمية الكبرى في العالم الغربي نشأت وتأسست على غرار الجامعات أو المؤسسات العلمية في الأندلس والتي كانت تمول بنظام الوقف (كجامعة كامبردج وأكسفورد).

وقد ذكر أستاذنا أقدم وثيقة (وثيقة سيدنا عمر ﷺ) وليت من الباحثين من ينهض بتحليلها.

تكلم عن مؤسسة الحسبة، وعن أول جمعية نسائية ظهرت على الأرض. وتكلم عن المذاهب الفقهية والفرق والطرق الصوفية، كذلك عن مؤسسة الأزهر.

أمور كثيرة تكلم عنها د. عمارة، ندعو الله ﷻ أن يوجد من الباحثين من ينهض فيملأ فراغات هذه الموضوعات.

نستأذن أستاذنا؛ عندنا الآن تعليقان: تعليق أ. د. طه جابر العلواني، ثم تعليق أ. د. عبد الرحمن النقيب، ثم نفتح حوارًا عامًا مع السادة الحضور.



أ. د. طه جابر العلواني:

الأستاذ الدكتور محمد عمارة، كالعادة، يقدم الموضوع من جوانبه المختلفة، ويضع يده على كثير من النقاط التي قد تغمض على سواه، بحكم ما آتاه الله ﷻ من قدرة وطاقة على التجوال في جوانب مختلفة من تراثنا الإسلامي الغني بجميع جوانبه، وقضى على قراءته قراءة متميزة، فالقراءة التي قام بها لتراثنا المؤسسي منذ بدء المحاضرة حتى نهايتها هي قراءة من نوع لا يتقنه أحد مثله - فيمن أعلم - تجرد هذا التراث من معطيات العصر ومن ثقافة العصر، وتقدم - ضمنًا - نوعًا عاليًا من المقارنة والتحليل يجعل المستمع

مندهشًا من قوة وعمق هذا الجانب أو ذاك من التراث كما يتناوله الأستاذ الدكتور عمارة، ففي الحقيقة الجولة التي جال بنا فيها في التاريخ الإسلامي وتشخيصه لسبب الغبش الذي نال الفكر المؤسسي ونال المؤسسات تشخيص دقيق، ودليل خبرة عرف بها في قراءة هذا التاريخ وتحليله.

الأمر الذي أود أن أضيفه، أنه كما وردت إشارة منه عن معاوية بن أبي سفيان - وربما وردت عن سواه أيضًا - أن الحكام كانوا يرون أنهم إذا ترك لهم أمر السلطان فيمكن أن يتركوا هوامش كبيرة من الحرية للأمة وللمجتمع ينشغلون ويعنون بها فلا يمسون المؤسسات التي تختارها الأمة إلّا حينما يكون هناك تصادم مباشر بين مصلحة السلطان وبين مؤسسة ما، فهذه الإشارة الدقيقة تذكر أنه رغم انحراف النظام السياسي في عهد بني أمية وعهد بني العباس ومن جاء بعدهم، لكن مؤسسة القضاء بقيت عادلة، سليمة، محايدة، وذلك هو الذي يزودنا بالأمثلة والنماذج على عدالة القضاء الإسلامي.

مؤسسات المجتمع؛ مثل الوقف، مثل الحسبة، مثل الجمعيات المختلفة، كلها لم تضار بالانحراف بالجانب السياسي بحيث أصبح الجانب السياسي لا يجد الاهتمام الكافي من قِبَل أهل العلم إلا في بعض قضايا حينما يريد أن يقحم نفسه كما أقحم المأمون نفسه في قضية خلق القرآن وما شاكل هذا، لكن قراءة الدكتور عمارة - وقد استفدت

من قراءته لقضية الفرق في كتابات سابقة له نشرت في سنين بعيدة - لم أجده يقرأها بهذه الطريقة على أنها أحزاب ومؤسسات مدنية يمكن أن تعطي صفة الإيجابية إلا هذه المرة فهل هو تطور في فكر الدكتور عمارة؟ أم هو قراءة إضافية لما كان يقرؤه في فكر هذه الفرق والطوائف؟

أشعر أن دور الفرق والطوائف كان في أغلبه دورًا سلبيًا، الإيجابي منه كان محدودًا جدًا، وهذا الدور السلبي أضعف من فكر الأمة، ربما تحسب للطوائف والفرق حسنة أساسية نستطيع أن نذكرها وهو أنها كانت ما تزال في داخل الكيان الاجتماعي الإسلامي لم تخرج عنه ولم تخرج عن المرجعية الإسلامية خلافًا للمؤسسات الحزبية في الوقت الحاضر الذي تجد فيه مؤسسات كثيرة اتخذت مرجعيات مختلفة لا علاقة لها بمرجعية الأمة وانفصلت عن جسم الأمة.

فهذه هي القضية التي لفتت نظري، إضافة إلى قراءتكم الجيدة والمتميزة والإيجابية لصفحات التاريخ المؤسسي والتي تحتاج إلى بلورة من باحثين يقفون عند النقاط التي مررتم عليها بالتحليل ويبنون لنا ما يمكن لنا استدامته أو استحياؤه أو البناء عليه من هذه المؤسسات وفكرها، وما يعتبر قد ارتبط بزمانه ومضى يمكن أن يترك لذلك الوقت. وبارك الله فيك، ونفع بك، واستمر عطاؤك إن شاء الله، وجزاك الله خيرًا.

أ. د. عبد الرحمن النقيب:

بسم الله الرحمن الرحيم، أرحب بالدكتور عمارة، وفي الواقع - كما ذكر د. طه - هناك شمولية في تناول المؤسسات، وهذه الشمولية تحتاج إلى وقفات قطعًا؛ لأن كل مؤسسة تحتاج إلى وقفة جديدة، ما أضافت؟ وما قصرت فيه؟ وقطعًا بعض المؤسسات كانت لها إيجابيات ضخمة؛ مثل طوائف المهن والحرف، بعضها قد يكون فيه بعض الهنات كالفرق والصوفية، أيضًا العلماء متى كانوا إيجابيين؟ ومتى كانت لهم مواقف سلبية؟ حتى مؤسسة الوقف، متى كانت معطاءة؟ ومتى انتهكت أوقافها؟ كل هذه الأمور تستحق الدراسة.

المؤسسات السياسية موجودة، اقتصادية، اجتماعية، علمية، كل هذه المؤسسات تحتاج إلى دراسة واسعة جدًّا لكي نعرف لماذا وهنت تلك المؤسسات؟ لماذا ضعف الاجتماع في المجتمع المسلم عبر العصور؟ لماذا وصلنا إلى مرحلة الفردية والأنانية واختفاء إيجابيات تلك المؤسسات؟ وأشكركم على هذا الطرح، ووفقكم الله.

د. عبد الناصر زكي العساسي - بالأزهر:

لدينا في الوقت الحاضر مؤسسة الوقف، وتجربة المعهد العالمي للفكر الإسلامي هي تجربة نشأت في الظروف العصرية التي نعيشها الآن، ومع ذلك اخترقت كل الحواجز

والمعوقات التي وقفت أمامها، وأنشأت لنفسها اسمًا كمؤسسة، فهل الدكتور عمارة لديه تصور لمؤسسة يمكن أن نسميها مؤسسة الدكتور عمارة؟ وشكرًا.

أ. محمد أبو بكر - مدرس:

فضيلة الدكتور، التوجيه القرآني والنبوي منذ أول لحظة يؤكد على المؤسسية حتى في أحلك الظروف: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] في غزوة أحد، الخطاب اليوم الذي نحياه وتحياه الأمة يؤسس للفردية، هل الدافع للفردية هو الإحساس بأن المؤسسية تذيب أو تضعف قدرة الفرد أو تغيب حجمه؟ أم أن المؤسسية هي التي تؤكد على هذا الأمر؟ شكرًا.

أ. علا محمد أحمد - طالبة دكتوراه - كلية البنات - جامعة عين شمس:

عندي إشكالية فأنا وغيري نعلم أن هناك من الكتب التي تحدثت عن المؤسسات سواء كانت الحسبة أو غيرها، مما ذكره أستاذنا، ولكن أنا أشعر أن هناك فجوة كبيرة بين هذا التراث وبين ما نحن فيه الآن، الأمة الآن - وقد أكون مخطئة - هي على فراش الموت، كيف لنا أن نحيي هذا التراث؟ كيف لنا أن ننزل هذا التراث على أرض الواقع حتى نحيي موات هذه الأمة؟

أ. سيد محمود... - إمام في وزارة الأوقاف:

فضيلة الدكتور بدأ كلامه وختمه بأن اليهود لم ينشئوا أمة، ولكن القرآن الكريم ذكر في بعض الآيات: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أُمَمًا﴾ [الأعراف: ١٦٨] فأنا أتساءل عن مفهوم الأمة في القرآن ومفهومه عند الدكتور، وشكرًا.

د. سعيد طعيمة - جامعة عين شمس:

هناك الكثير من التحديات الخارجية والداخلية التي تفرض نفسها علينا الآن وعلى ثوابتنا ومتغيراتنا، وهناك رأي يقول بأننا يجب أن نتفاعل مع العالم بحكم وجود مشترك ثقافي معين يربطنا بالثقافات الأخرى، فما هي حدود هذه المرونة التي تجعلنا نتفاعل مع الآخر في حدود ثوابتنا ومتغيراتنا؟ وشكرًا.

م. خالد محمد أحمد علي:

سعدت أولًا بما سمعته منكم ومن الحضور في تبسيط الأمر في أن الدولة الإسلامية قامت على المؤسسية، ولكنني ألاحظ أنه منذ إنشاء مؤسسة السبعين أو مجموعة الاثني عشر، ألاحظ أن هناك تنظيمًا دقيقًا جدًّا، فماذا كان المنظم لهذه المؤسسات؟ هل هي الدعوة في ذاتها؟ أم أنها شخصية النبي ﷺ بما أوحي إليه بأن يكون منظمًا (قائدًا) لهذا التنظيم؟ فأنا أتصور أن الروح المؤسسية تختلف عن النظام نفسه فأنا لم أستوضح هذه النقطة. وشكرًا.

د. عبد رب الرسول - مدرس بكلية التربية - جامعة الأزهر:

بما أن مؤسسة الوقف أسهمت بدور بارز وصنعت الحضارة الإسلامية، كما ذكر د. عمارة، كيف يمكن تفعيل دور هذه المؤسسة في الوقت الراهن، لا سيما في مجال التربية والتعليم؟. وجزاكم اللّٰه خيرًا.

د. محمود سعيد حميدة - مدرس مساعد بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة:

هل المؤسسة ضمن الحضارة الإسلامية تعني الفرقة أو الجماعة؟ وقد لاحظت أن حضرتك تعتبر الفرق الإسلامية عامة والصوفية والفقهاء المحدثين وغيرها من المؤسسات التي ذكرت في كتب الطبقات المختلفة، لكن هل هذه المؤسسات غابت عن حضارتنا الإسلامية؟ وإذا كانت لم تغب، هل كان لها دور في صنع الحضارة الإسلامية؟. هل من الممكن أن تعتبر الفرق الكلامية؛ كالمعتزلة والأشاعرة على ما كان بينهما من خلاف لهم دور في إحداث صنع وتقدم في هذه الأمة، لا سيما أن الذين يرتدون بتخلف الأمة الإسلامية في المقام الأول كالشيخ أبي الحسن الندوي في كتاب « .... عن أحوال المسلمين » إذا كنا نريد أن نضع إصبعنا على الخط الفاصل بين حد الكمال والزوال فلا بد أن نضع إصبعنا على الخط الفاصل بين دولة النبوة والممالك العربية فإذا كان هذا التخلف يبدأ من التحول

من الخلافة الراشدة إلى الملك العضود. فكيف ندخل هذه الفرق والمؤسسات باعتبارها من المؤسسات التي تسهم في صنع الحضارة الإسلامية؟

محمد الأتربي - باحث بدار العلوم:

الظاهرة الاستبدادية وقفت أمام المؤسسية، هذا ما نطق به الحديث، كيف نقوم بالمؤسسة مرة أخرى؟ وكيف نحمي المؤسسة من الاستبداد؟ ثانيًا: دور الفرد غير منكر في تاريخنا، والإيجابية سمة من سمات الأداء الإسلامي، فكيف نجمع بين الفردية وإيجابياتها والمؤسسة في حضارتنا؟ وشكرًا.

أ. د. رفعت العوضي:

الآن يقوم الأستاذ الدكتور عمارة بالإجابة عن الأسئلة فليتفضل مشكورًا.

أ. د. محمد عمارة:

بسم الله الرحمن الرحيم، طبعًا ملاحظة الدكتور طه أنا ما قرأت منه الآن هو الكتاب الذي كتبته قديمًا - في سبعينيات القرن الماضي - عن الفرق والمعتزلة ولكن من الطبعة الحديثة[1]. ما أشار إليه الدكتور طه أنا متفق فيه هو

---

(١) الإشارة إلى كتابي (تيارات الفكر الإسلامي). ولقد كتبته في سبعينيات القرن العشرين وأحدث طبعاته - دار الشروق - (٢٠٠٧م).

الدور السلبي الذي قامت به الفرق، وهذا ما أشار إليه أحد الإخوة، في الحقيقة في السنوات الأخيرة كانت تشغلني قضية اختلاف المسلمين حول « علم الكلام »، نحن أشرنا في القصيدة – عن واصل بن عطاء والمعتزلة – أنهم يسمونه علم التشاجر (الجدل)، وبعض الفقهاء حرموا علم الكلام، وبعضهم أجازه، والبعض الآخر توسط بين هذا وذاك.

وفي الحقيقة أنا وصلت في السنوات الأخيرة، إلى رؤية أعرضها عليكم: كيف نشأ علم الكلام؟ نشأ في الجدل مع غير المسلمين، والذي بدأ علم الكلام هم المعتزلة (دعونا من أن الشيعة هم الذين ألفوا في الإمامة أولًا) لكن علم الكلام كعلم جدل مع المخالفين بدأ وتأسس وازدهر على يد المعتزلة، وما هو علم الكلام؟: هو إثبات العقيدة بالمنطق والعقل، هذه هي رسالة علم الكلام، فكان في الجدل مع غير المسلمين لا بد من هذا، فلا يمكن أن تقول لغير المسلمين: قال اللّٰه وقال الرسول، فهو لا يعرف أن هذا قول اللّٰه وقول الرسول، ولذلك فإن الذين نشروا الإسلام في الحواضر ذات المواريث الفلسفية والدينية هم المعتزلة، ولقد رسمتُ خريطة للمدن التي غلب عليها الاعتزال فكانت هي المدن التجارية التي كانت فيها المؤسسات الفلسفية التاريخية، الجاحظ (١٦٣ – ٢٥٥هـ/ ٧٨٠ – ٨٦٩م) يورد نموذجًا فيه طرافة لكن فيه عمق وموضوعية، في أيام الرشيد

(١٤٩ - ١٩٣هـ/ ٧٦٦ - ٨٠٩م) كان المعتزلة في محنة (كانوا جماعة محظورة ومعتقلة) فكان زعيم (السُّمَنية) - وهي طائفة كالفلسفة الوضعية يؤمنون بالواقع والمادة ولا يؤمنون بالرسالات ويعتقدون أن سبب المشاكل في هذه الدنيا هي النبوات والرسالات في السند طلب من ملك السند أن يتحدى هارون الرشيد ليرسل أكبر علماء بغداد لمناظرته، والمنهزم هنا يدخل دين المنتصر، فأرسل الرشيد قاضي قضاة بغداد، فسأله السميني: أإلهك قادر؟، قال: نعم، قال: أيقدر أن يخلق مثله؟، ففزع الرجل (لو قال لا يستطيع فهو عاجز، ولو قال يستطيع فإذن ممكن أن يكون هناك إلهان) فقال: هذا من علم الكلام، ونحن نحرم علم الكلام. وعاد إلى بغداد خائبًا. فجن الرشيد، وقال: أما لهذا الدين من مدافع عنه؟ فانبرى من حاشيته شخص قال له: الجماعة المعتقلة لديكم هم من يفهمون ذلك، فتوجهوا إلى السجن فأتوا بأحدهم وكان عمره اثنين وعشرين عامًا، وأرسلوه إلى السميني فسأله نفس السؤال: أإلهك قادر؟ قال: نعم، قال: أيقدر أن يخلق مثله؟ قال: هذا سؤال خاطئ؛ لأن المخلوق حادث ولا يمكن أن يكون مثل الخالق القديم، فالمخلوق حادث والله قديم. انتهت القصة.

إذن علم الجدل هو علم الكلام مع المخالفين، وقد لعب دورًا رياديًا في نشر الإسلام. السلبية التي أشار إليها د. طه،

وأنا معه فيها، في تقديري جاءت عندما استخدم السلاح - سلاح الجبهة الخارجية - في الجبهة الداخلية؛ لأن هذا سلاح في الجدل مع غير المسلمين، عندما ندخله نحن في الذات الإلهية، وفي العلم الإلهي، وفي الرؤيا، والتحيز... إلخ هذه هي السلبية الكبرى التي حدثت. وأنا بالفعل كانت تشغلني هذه المسألة، وهداني اللّه إلى هذا التصور، ولذلك الذين حرموا علم الكلام كان لهم وجهة نظر ومنطق، وكذلك من أجازوه، لكن الخطأ كان في التحول من سلاح مفروض في الجبهة الخارجية عندما جعلناه سلاحًا فيما بيننا في الفرق الإسلامية.

موضوع أن يكون لي مؤسسة، استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان! لكي يعيننا اللّه ونكمل المشوار.

هناك سؤالان اجتمعا في موضوع واحد، وهو: علاقة المؤسسية بالفرد وهل الفردية ضد المؤسسية؟

الفرد ليس ضد المؤسسية، الفرد عندما يصبح جزءًا من المؤسسية يكون أفعل، وضربت المثل كيف أن رسول اللّه ﷺ جعل القبيلة لبنة جدار الأمة؛ لأن عصبية القبيلة مطلوبة، وقد رأينا العباس عم النبي - وهو على الشرك - يتأكد لرسول اللّه ﷺ في بيعة العقبة ويقول لهم: إذا لم تحمونه أنتم فسوف نحميه نحن، وموقف أبي طالب كذلك، مما يدل على أن العصبية شيءٌ جيدٌ. وقد أعجبني

مقال لجمال الدين الأفغاني في مجلة « العروة الوثقى » بعنوان: « التعصب » يقول فيه: إن التعصب ليس سيئًا بإطلاق، فهو ككل شيء فيه غلو، إفراط وتفريط، لكن الوسطية فيه مطلوبة، وضروري أن يكون موجودًا فعلًا، فنحن لا بد وأن نتعصب للإسلام.

ومن هنا أقول: إن الفرد لا يذوب في المؤسسية إنما يصبح أفعل في إطار المؤسسة، والفرد ليس ضد المؤسسة إنما الاستبداد، أي عندما يصبح الفرد هو الزعيم الأوحد: ﴿ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ [غافر: ٢٩] هذا الذي يصبح ضد المؤسسة.

هناك سؤال حول أن هناك فجوةً بيننا وبين التراث، هذا صحيح وأنا أميز دائمًا بين شيئين: قراءة التراث والتاريخ، وبين الوعي بالتراث والتاريخ، وقد ألفت كتابًا اسمه « الوعي بالتاريخ »، فحين أرى رقم.... فمثلًا الرسول ﷺ ولد سنة (٥٧١م) عندما نرى هذا الرقم نجد فيه دلالة، فهذه السنة كان مفروضًا فيها أن تعم البلوى في احتلال الشرق كله، فقد كان الشرق كله محتلًّا إلا الحجاز وجاءت غزوة..... لتعمم البلوى، هذا الميلاد كان إيذانًا بموجة ستعيد القصة من أولها، وستزيل كل هذا، والمسلمون فتحوا في ثمانين عامًا أوسع مما فتح الرومان في ثمانية قرون، وأزالوا القوى العظمى، وتركوا الناس وما يدينون، وحرروا الأرض والضمير. في

هذا العام، هذا الرقم كان فيه انعكاس للموجة، فبدلًا من عموم البلوى بدأت حضارة جديدة وبناء نهضة جديدة، إذن الوعي بالتراث مطلوب. وكما قلنا: فعلم الكلام كيف يكون السلاح سلبيًا وكيف يمكن أن نجعله إيجابيًا.

سؤال كان يتكلم عن موضوع الأمة واليهود، ذكر أنهم أمم، هم أمم فعلًا؛ لأنهم أقليات، إنما موضوع الأمة في القرآن (الجماعة) فهناك أمم أمثالكم، وأمم في الحيوانات والحشرات، وقد قرأت تعريف الراغب الأصفهاني للأمة أنهم (أي جماعة يجمعهم دين واحد، زمان واحد، مكان واحد) وقد كتبت دراسة عنوانها: « هل المسلمون أمة واحدة؟ » فيها تعريف الأمة في اللغة وفي التراث، وكيف أن الأمة في الرؤية الإسلامية لها خصيصة أنها تعريفها ليس جامعًا مانعًا، وإنما هي منفتحة دائمًا وأبدًا لاستيعاب من يدخل في إطار هذه الأمة، فنحن نعرف الأمة بالمعنى العرقي، الأمة بالمعنى العنصري، الأمة بالمعنى السياسي في الدساتير تكون متغلقة فتعريفها هنا جامع مانع، إنما الأمة هي الجماعة دائمة التحقق على مر التاريخ فهذا لمن يحتاج هذه الدراسة فليرجع إليها في مفهوم الأمة.

موضوع حدود التفاعل مع العالم، التفاعل وسط بين الانغلاق والتبعية والتقليد، التفاعل هو أن نتفاعل في المشترك الإنساني العام مع الاحتفاظ بالخصوصية، وهي

البصمة الحضارية للأمة، نحن لدينا في العلم الطبيعي وتقنياته العلومُ التي لا تتغير حقائقها وقوانينها بتغير العقائد، هذه مشترك إنساني عام، كالماء والهواء، إنما هناك خصوصيات، فالعلوم الشرعية (ومن هنا تأتي إسلامية المعرفة كاملة في العلوم الشرعية) والعلوم الاجتماعية والإنسانية فيها قدر من الإسلامية، والعلوم الطبيعية حقائقها ثابتة، لكن هناك إسلامية في تطبيقات العلوم، في فلسفة تطبيق العلوم، في القيم والأخلاق التي تحكم تطبيقات هذه العلوم. إذن نحن نريد منتدى حضارات، نتفاعل، نتعاون، نشارك في المشترك الإنساني العام، مع الاحتفاظ لكل حضارة بخصوصيتها الثقافية؛ ولذلك كتبت في هذا الكثير، من ضمن ما كتبت كتاب « الغزو الفكري وهمٌ أم حقيقة » ما حدود التفاعل؟ الانغلاق مستحيل وضار، بالضبط الانغلاق كمن يضرب عن الطعام، يأكل ذاته، وكذلك المقلد والتابع، يأكل ذاته فينتهي، إنما التفاعل هو الحفاظ على الخصوصية مع الانفتاح، فالتفاعل مع كل العالم، وهذا هو الفارق بين ما نقوله وندعو إليه وبين العَلمانيين الذين يريدون أخذ النموذج الحضاري الغربي بخيره وشره بحلوه ومره، ما يحمد فيه وما يعاب.. إلخ. آخر الكلام الذي قاله طه حسين (١٣٠٦ - ١٣٩٣هـ/ ١٨٨٩ - ١٩٧٣م) والذي تراجع عنه حين هداه اللَّه. هذا موضوع التفاعل مع العالم.

موضوع التنظيم الدقيق الذي أشرت إلى بعض منه، ماذا كان سره؟ الرسول أم شيء آخر؟ أود أن أقول: إننا حتى الآن لم ندرس جيدًا ما نسميه مدرسة النبوة. نحن أمام أكاديمية، دار الأرقم بن أبي الأرقم التي صنعت وأعادت صياغة كوكبة غيرت الدنيا، الروضة، مدرسة النبوة.

سأضرب لكم مثلًا أو مثلين لتعرفوا مقدار الدقة. الرسول ﷺ في غزوة بدر عندما قال لأصحابه: «أشيروا علي» نحارب أم لا؟ فقال له المهاجرون: نحن معك. فيعود ويسأل، فيقول له الأنصار: كأنك تعنينا فقال ﷺ: «نعم»، فقالوا: نحن معك. لماذا؟ هنا بوعي بالتاريخ وبفقه التاريخ، الرسول ﷺ في بيعة العقبة بايع على إقامة دولة في حدود المدينة. وطن له حدود. وعندما نقرأ في وثيقة المدينة نجده يتكلم عن حدود الدولة (المدينة)، وغزوة بدر كانت الحرب ستدور خارج المدينة، وهذا ما لم يتفق عليه - انظر إلى الفكر الدستوري، القانوني؛ ففي بيعة العقبة لم يتفقوا على حماية الرسول خارج المدينة، وهو هنا يريد أن يطور التعاقد بالشورى، انظر إلى دقة الفكر الدستوري والقانوني. هذا يعني أننا أمام فكر وليس مجرد مواعظ ووصايا، فهذا فقه.

المثال الثاني فيه طرافة: حاطب بن أبي بلتعة (بدوي) لم يدخل كُتَّابًا ولا مدرسة ولكنه تعلم في مدرسة النبوة، عندما ذهب إلى المقوقس برسالة رسول الله ﷺ سنة

(٧هـ).المقوقس وارث أعظم وأعرق حضارات الدنيا، ونصراني عنده كتاب، ومؤمن باليهودية، الحوار الذي دار بينهما يكشف عن معنى تربية رسول اللَّه ﷺ للصحابة. أراد المقوقس الهجوم على حاطب بن أبي بلتعة، فقال له: صاحبك (أي الرسول) ماذا يمنعه إن لم أتبعه أن يدعو عليَّ فيحدث لي كذا وكذا؟ فقال حاطب: يمنعه الذي منع عيسى أن يدعو على مخالفيه فيحدث لهم كذا وكذا!. ثم قال له (ملخصًا) فلسفة التاريخ في كلمتين: « إنه قد كان قبلك رجل قال: أنا ربكم الأعلى فانتقم به ثم انتقم منه، فاعتبر بغيرك ولا يعتبر بك. إننا ندعوك إلى الإسلام، وما دعوتنا لك للإسلام إلا كدعوتك اليهود إلى النصرانية، وما دعوتنا إلى القرآن إلا كدعوتك أهل التوراة إلى الإنجيل، إننا ندعوك إلى الإسلام الكافي به اللَّه فَقْد ما سواه، ونحن لا ننهاك عن دين المسيح وإنما نأمرك به ».

حين ننظر إلى حاطب بن أبي بلتعة نجده خريج مدرسة النبوة، فهذه المدرسة هي التي صنعت الجيل الذي غير الدنيا، عندما جاء عمرو بن العاص (٥٠ق.م - ٤٣هـ/ ٥٧٤ - ٩٦٤م) إلى مصر بأربعة آلاف جندي، فوجد فيها مائة وعشرين ألف جندي رومانيًا، في حصون وراءها حصون، فأرسل إلى عمر بن الخطاب قائلًا: إن معي أربعة آلاف وأمامي مائة وعشرين ألفًا، وهناك مدد قادم دائمًا

إلى الأسكندرية من البحر. فقال عمر: معك أربعة آلاف، وسأرسل لك أربعة آلاف فيصبحوا ثمانية آلاف، وسأرسل لك أربعة من الصحابة كل واحد منهم بألف، فيكون معك اثنا عشر ألفًا! ويكون هؤلاء في المقدمة. فكرة الصحابة، كيف صنعهم الرسول على عينه، وكيف غيرت هذه القلة العددية وجه الدنيا، وفتحت في ثمانين عامًا أوسع مما فتح الرومان في ثمانية قرون، هذا هو التنظيم، النظام، الدقة، المعجزة التي حدثت على وجه الأرض. أريد أن أقول: إن رسول الله ﷺ، مؤيد بالقرآن الكريم، فمدرسة النبوة هي التي صنعت هذا، ولذلك نقول: إننا عندما نعي التاريخ نكتشف أشياء قد نمر عليها مرور الكرام، فنكتشف فيها - بالوعي - أسرارًا تجعل عشقنا يزداد لرسول الله ﷺ ويزداد لصحابة رسول الله ﷺ.

موضوع بعث الوقف من جديد، هناك محاولات د. شوقي الفنجري - أكرمه الله - يجري محاولات، لكن المسألة تحتاج محاولات مع الحكومات، فمنذ حكومات العسكر أصرّت الحكومات على أن يكونوا نظارًا على الأوقاف، واستغلوا أن الأوقاف جاء عليها حين من الدهر كان فيها عيوب وسرقات، لكن ليس علاج المريض أن تدعه يموت! أو أن تقتله! وإنما معالجته، وهذا موضوع يحتاج إلى عملٍ كبير.

المؤسسات لم تغب وإنما أضعفت في ظل نظام العسكر، فلما تعسكرت الدولة بالنظام المملوكي بدءًا من المعتصم العباسي (١٧٩ - ٢٢٧هـ/ ٧٩٥ - ٨٤١م). الإمام محمد عبده أشار لهذا التحول بعبقرية فقال: « كان الدين عربيًا، ثم حدث اجتهاد للمعتصم فأصبحت الدولة أعجمية ». وكان هذا من أسباب نظام عسكرة الدولة.

الغزوة الخارجية الطويلة للصليبيين (٢٠٠) سنة، ثم التتار، هددوا الوجود، ففي ظل الخطر الذي يهدد الوجود، الأمة تسلم قياداتها للعضلات!.أتعلمون متى حدثت الانقلابات العسكرية في العالم العربي؟ بعد قيام إسرائيل، يكون خطر يهدد الوجود فتسلم الأمة قيادها للعضلات بدلًا من العقل. فنقول: في ظل عسكرة الدولة لفترات طويلة حدث التراجع الحضاري، حتى في اللغة، حتى في الشعر، حتى في الأساليب، في الفقه، فصار عبارة عن حكاكات لفظية وشروح وهوامش وتعليقات، وبدأ الاجتهاد يضمر في الأمة.

موضوع المُلك العضود أنا أعجبني السنهوري باشا (١٣١٣ - ١٣٩١هـ/ ١٨٩٥ - ١٩٧١م) إذ سماها الخلافة الناقصة، فنحن لا نعتبر أن الملك العضود كان نهاية الدنيا أو كارثة وطامة، كما قلت؛ لأن حجم الدولة كان محدودًا، فالانحراف لم يمثل كارثة؛ لأن مؤسسات الأمة كانت هي الفاعلة في بناء الحضارة.

كيف نبني المؤسسة؟ أنا أرى أن بناء المؤسسات يحتاج جهودًا وتضحيات، وكما نعرف، النظم المستبدة لا تريد شريكًا ولا مؤسسات (والأحزاب نموذج)، وأنا أتصور أن حالة التراجع التي وصلت إليها الأمة، والإفلاس الذي وصلت إليه النظم السياسية، تفتح الأبواب لجهود في سبيل المؤسسات.

أيضًا من العوائق أمام المؤسسات في العالم الإسلامي: الغلو في القطرية التي جزَّأت العالم الإسلامي؛ إذ يعتبرون أن هذه الأمة قد ماتت وهم يرثونها! وتجد من يتكلم عن الشخصية القَطَرية والشخصية التونسية... إلخ! مع أن الإسلام يصنع الجامعة الإسلامية، وتحتها يمكن تمايز للأقاليم والأقطار والولايات، وقد تكلم جمال الدين الأفغاني عن ذلك في « العروة الوثقى » بما يعني أننا لا نريد لأحد أن يترك كرسيه، لكن تكون هناك رابطة جامعة، فلو أصبحت « منظمة المؤتمر الإسلامي » فاعلة لأصبحت هي الشكل المعاصر والجديد للخلافة الإسلامية، فالخلافة ليست شكلًا، بل هي النظام أيًا كان هذا النظام، الذي يحقق « وحدة الأمة وتكامل دار الإسلام ».

إذن نحن نستطيع تهذيب الغلو القُطْري، تهذيب الغلو القومي، فلو كانت القومية رابطة لغوية فهذه آية من آيات اللَّه، إنما لننزع العنصرية والغلو القُطْري من القومية،

وعندئذ تصبح المؤسسة مؤسسة الأمة، إنما لو أنشأ كل منا مؤسسات داخل الأقطار سيُنتج نوعًا من التناحر، إنما تكامل الأمة ووحدة الأمة هو ما يمكن أن يجعل المؤسسات أفعل، ولذلك فنحن حريصون على المؤسسات التي لها امتداد على امتداد الأمة؟ لذلك يصعب علينا رؤية تراجع الأزهر والمجامع الفقهية ومؤسسات العالم الإسلامي، ولذلك نحن حريصون على إبقاء هذه المؤسسات فاعلة لتكون نموذجًا لعمل أفضل إن شاء الله وشكرًا لكم.

أ. د. رفعت العوضي:

شكرًا لأستاذنا الدكتور محمد عمارة، وإلى أن نلقاكم على خير، شكرًا لكم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

***

الكتاب في سطور

لقد دعمت الأكاذيب والمبالغات الشعوبية والشيعية التصورَ الزائف والقاصر لموروثات الحضارة الإسلامية، ذلك التصور الذي سوّد صورة هذا التاريخ، حاصرةً إياه في حيز « النطع و السياف»، وإلى هؤلاء الغلاة نوجه هذا التساؤل: كيف لحضارة وضع الوحي نواتها، وتعلمت منها الدنيا - وما زالت تتعلم - كيف لها أن تضحى من الموات؟ وكيف تزدهر رياض الإبداعات الدينية والمدنية على أرض النطع والسياف؟

إنها معادلة صعبة ونظرة سوداوية لتاريخنا الإسلامي من غلاة العلمانيين، لا هدف لها إلا تشويه صورة الإسلام وتاريخ أمته وحضارته.

لقد غابت عن هؤلاء صورة الواقع الثري والغني الذي أرّخ له العلماء، واقع الدواوين والمؤسسات والعمارة وتمصير الأمصار، متناسين أن فكرة تحجيم الدولة وتعظيم الأمة هي الخصيصة التي ارتكزت وقامت عليها حضارتنا الإسلامية.

الناشر

دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

القاهرة - مصر - ١٢٠ شارع الأزهر - ص.ب ١٦١ الغورية

هاتف: ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ - ٢٥٩٣٢٨٢٠ - ٢٥٠٥٤٦٤٢

فاكس: ٢٢٧٤١٧٥٠ (٠٢٠٢+)

الإسكندرية - هاتف: ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس: ٥٩٣٢٢٠٤ (٠٢٠٣+)

www.dar-alsalam.com info@dar-alsalam.com

